الفصل الثانى

فى الطريقة.. ونظم الطرق الصوفية وكيفية المتابعة عليها

كلمة طريق وطريقة فى القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقا﴾[1].

وقال تعالى: ﴿إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقًا﴾[2].

وقال: ﴿مصدقًا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم﴾[3].

وقال: ﴿ويذهبا بطريقتكم المثلى﴾[4].

وقال: ﴿إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلاّ يوما﴾[5].

وجمع لفظة طريق «طرق» أما لفظة طريقة فجمعها «طرائق». قال تعالى: ﴿وأنا منا الصالحون، ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا﴾[6].

الطريقة عند الصوفية:

الطريقة عند الصوفية هى السيرة المختصة بالمتصوفة السالكين إلى الله، فهى سفر إلى الله تعالى «والسالك أو المريد هو المسافر، فعلى المسافر أن يسلك طريق القوم وأن يجتازها مرحلة بعد مرحلة، أما من أدركته عناية الله فجذبته العناية إلى الله جذبا فهذا ما يسمونه المجذوب الذى طويت له الطريق طيًّا فى سفر خاطف بفضل الله ومنته»[7].

ويقول صاحب كتاب ظهور الحقائق فى بيان الطرائق: «والطريقة عند أهل الحقيقة عبارة عن

---

(١) سورة الجن آية ١٦.

(٢) سورة النساء آية ١٦٨.

(٣) سورة الأحقاف آية ٣٠.

(٤) سورة طه آية ٦٣.

(٥) سورة طه آية ١٠٤.

(٦) سورة الجن آية ١١.

(٧) كتاب أبو الحسن الشاذلى الجزء الثانى للأستاذ على سالم عمار ص ٢٤.

مراسم الله تعالى وأحكامه التكليفية التى لا رخصة فيها، وهى المختصة بالسالكين إلى الله تعالى مع قطع المنازل والترقى والمقامات»[٨].

وقد سئل المؤلف عن معنى السير إلى الله تعالى ما هو فأجاب: «إنه سير حقيقى ومعنوى بتزكية النفس والجوارح عن منكرات الأخلاق والأعمال، وبذلك يقرب العبد من حضرة الله قربًا معنويًا، وكلما كان أزكى وأطيب، كان أدنى وأقرب. وثم سير آخر إلى الله تعالى ألطف من هذا وأدق، ولكن لا يصلح ذكره إلا مع من انتهى فى السير المذكور أولا أو قارب الانتهاء»[٩].

ونجد أنه حينما نشأ التصوف الإسلامى فى أواخر القرن الثانى الهجرى وما بعده، استمرارا لحركة الزهد الإسلامية الأولى، نجد هذا الاصطلاح أعنى «الطريقة» يتخذ مدلولا خاصًا، فهو يعنى عند صوفية القرنين الثالث والرابع الهجريين المذكورين فى «الرسالة القشيرية»[١٠] مجموعة الآداب والأخلاق والعقائد التى يتمسك بها طائفة الصوفية. ويذكر القشيرى أيضا كلمة طريق بمعنى منهج الإرشاد النفسى والخلقى، الذى يربى به الشيخ مريده، فيروى عن أبى على الدقاق قوله: «الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فإنها تورق لكن لا تثمر، كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقته نفسها فهو عابد هواه لا يجد نفاذا»[١١].

فإذا كنا مع الإمام أبى حامد الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ «نجده يفهم الطريق الصوفى على نحو لا يختلف كثيرا عن النحو الذى فهمه عليه صوفية القشيرى. وأبو طالب المكى يقول: إن طريق الصوفية عبارة عن تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة، وقطع العلائق كلها، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى، ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولى لقلب عبده المتكفل له بتنويره بأنوار العلم. وقد رجع هذا الطريق إلى تطهير محض من جانب السالك، وتصفية، وجلاء، ثم استعداد وانتظار[١٢]، ويعنى الغزالى كمن سبقه ببيان قواعد السلوك[١٣] على نحو متصل، مثل علاقة المريد بالشيخ، وقواعد العزلة والخلوة والذكر وما إليها، وهو يصف مقامات السلوك وأحواله على اختلافها فى كتبه التى ألّفها فى التصوف، وعلى الأخص إحياء علوم الدين.

ويرى البعض أن مجىء الإمام الغزالى كان «من العوامل الهامة التى غيرت من مجرى التصوف الإسلامى، فقد أرسى الغزالى قواعد التصوف السنى، الذى يعنى بالجانب الخلقى التربوى فى العالم الإسلامى، ورفض أنواع التصوف الأخرى المسرفة كتصوف الحلاج القائم على فكرة الحلول، وتصوف البسطامى الذى يعلن فيه الاتحاد. وسرعان ما ظهر المعجبون بالإمام الغزالى فى اتجاهه هذا

---

(٨) ظهور الحقائق فى بيان الطرائق للسيد عبد الله بن علوى بن حسن العطاس ص ١٧.

(٩) ظهور الحقائق فى بيان الطرائق للعطاس ص ١٨.

(١٠) بحث الدكتور التفتازانى بمجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة: المجلد ٢٥ جـ ٢ ديسمبر ١٩٦٣. ظهر فى ١٩٦٨.

(١١) الرسالة القشيرية طبعة القاهرة ١٣٣٠ هـ ص ٢، ص ٣، ص ٧.

(١٢) إحياء علوم الدين للغزالى جـ ١ ص ١٦، ١٧ وما بعدها ط القاهرة ١٣٣٤ هـ

(١٣) الإحياء جـ ٣ ص ٥٢ وما بعدها ص ٥٦، ٦٤ وما بعدها.

من كبار شيوخ الصوفية، تذكر منهم الشيخ الجيلانى المتوفى سنة ٥٦١ هـ، والرفاعى المتوفى سنة ٥٧٨»[١٤].

ونلاحظ بعد ذلك شدة تيار الطريق وازدهاره بشكل واضح فى القرن السابع الهجرى والقرون التالية له.

ومما سبق عرضه لبيان معنى الطريق يتضح لنا أن هذا «اللفظ العربى الذى يعنى السبيل قد أخذ معنيين اصطلاحيين متعاقبين فى التصوف الإسلامى، فهو فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين - الثالث والرابع الهجريين عبارة عن منهج النفس الأخلاقى، يدبر عمليًا ضروب السلوك الفردى. وهو بعد القرن الحادى عشر الميلادى - الخامس الهجرى قد أصبح عبارة عن جملة مراسم التدبير الروحى المعمول به من أجل المعاشرة فى الجماعات الإخوانية الإسلامية المختلفة، التى بدأت تنشأ منذ ذلك الحين.

وانتهت الطريقة إلى أن أصبحت تدل على المعاشرة القائمة على الرعاية الإسلامية العادية، وعلى سلسلة من الوصايا الخاصة، لكى يصبح الإنسان مريدًا، ويتلقى المريد البيعة أو التقليد أو الشد أمام طائفة من الشهود ذوى المراتب من شيخ السجادة والمرشد، والمقدم والنقيب والخليفة[١٥].

وهذا ما انتهت إليه الطريقة منذ القرنين السادس والسابع الهجريين، والقرون التالية لهما، فوجدنا الطريقة عهدًا بين شيخ ومريده على التوبة والاستقامة، والدخول فى طريق الله وذكره دائمًا، والعمل بآداب وأصول الطريقة التى يتبعها المريد، مع القيام بأوراد وأحزاب شيخ الطريقة فى المواعيد التى يحددها له، وهذا ما سنتناوله فى كتابنا هذا إن شاء الله تعالى، حيث نلقى الضوء على المنهج المتبع فى الانتساب للطرق الصوفية، ومراتب الطريق ومراسيمه ونظمه، وملامح وخصائص الطرق الصوفية.

المنهج المتبع فى الانتساب إلى الطرق الصوفية بمصر:

يحدثنا صاحب جامع الأصول عن كيفية الأخذ والانتساب إلى الطريق فيقول: «اعلم أن الأخذ والانتساب إلى الطرق على أربعة أقسام: أحدها: أخذ المصافحة والتلقين للذكر، ولبس الخرقة والعذبة للتبرك أو للنسبة أيضا فقط، وثانيها: أخذ رواية، وهو قراءة كتبهم من غير حل لمعانيها، وهو يكون للتبرك أو للنسبة أيضا فقط، وثالثها: أخذ دراية وهو حل كتبهم لإدراك معانيها لذلك فقط. ورابعها: أخذ تدريب وتهذيب وترق فى الخدمة بالمجاهدة للمشاهدة والفناء فى التوحيد والبقاء، وهو المراد العزيز وجوده، وعلى هذا المعول أكثر الطرق. ويصح الانتساب أيضًا بالإتباع والمشاركة، ولو فى شىء يسير مع المحبة لهم، كتلاوة حزب من أحزابهم، ولذا قال الشاذلى: من قرأ حزبنا هذا فله ما لنا وعليه ما علينا[١٦].

---

(١٤) الدكتور التفتازانى: مجلة كلية الآداب مجلة ٢٥ ص ٦٠.

(١٥) دائرة المعارف الإسلامية مادة طرق صوفية ص ١٧٢، ١٧٣ كتبها لويس ماسينيون.

(١٦) من بحث: عن الطرق الصوفية فى مصر للأستاذ الدكتور التفتازانى بمجلة كلية الآداب مجلد ٢٥ ص ٦٩.

ومن ذلك نلاحظ أن «المنهج المتبع الآن فى كل الطرق الصوفية، هو أخذ العهود على المريدين بعد استتابتهم عن المعاصى، وبعد أخذ العهد على المريد يمضى فترة فى الطريقة حتى يكمل، فيجيز شيخه المباشر الذى هو خليفة الطريقة، فيطلب عندئذ من شيخ الطريقة إعطاء هذا المريد إجازة الطريق، وهى شهادة تحتوى تاريخ الطريقة وأسانيدها، وتشهد بأن هذا المريد أصبح قادرًا على إرشاد غيره من المريدين وإعطائهم العهود»(١٧).

والملاحظ أن هذه الطريقة لأخذ العهود على المريدين، هى نفس الطريقة المتبعة تقريبًا فى القرن السابع الهجرى. فكما أوضحنا سابقًا أن الطريقة انتهت فى القرنين السادس والسابع الهجريين والقرون التالية لهما، إلى أن أصبحت عهدًا بين شيخ ومريد على التوبة والاستقامة.

غير أنه بعد القرون التالية للقرن السابع الهجرى، قد زاد على ذلك العهد الشفهى تلك الشهادة المطبوعة التى تشهد بأن المريد أصبح قادرًا على إرشاد غيره من المريدين، وعلى إعطائهم العهود أو ما يسمى بإجازة الطريق.

مراتب الطريق(١٨):

مراتب الطريق أربعة: «لا يضع السالك قدمه فى ثان، ولا يدخل فى واحدة، حتى يعمل ما قبلها وهى: مرتبة التوبة، ومرتبة الاستقامة، ومرتبة التهذيب، ومرتبة التقريب.. أما الأولى فإن التوبة أصل كل مقام وحال، وأول المقامات، وهى بمثابة الأرض للبناء فمن لا توبة له لا حال ولا مقام له.. وأما الثانية: فهى مرتبة الاستقامة على الطاعة، واجتناب المخالفات، وإقامة الأوراد من جميع الطاعات، والدعاء فى جميع الحالات، واتباع المراد، وإيثار السيداد. والثالثة: التهذيب، وله أربعة أركان: الصمت، والعزلة، والصوم، والسهر، وكل واحد منها يدفع عدوًّا، فالشيطان سلاحه الشبع، وسجنه الجوع، والهوى سلاحه الكلام، وسجنه الصمت، والدنيا سلاحها لقاء الخلق، وسجنها العزلة، والنفس سلاحها النوم وسجنها السهر»(١٩).

---

(١٧) جامع الأصول للكشمخوى ص ٦١، ٦٢ بتصرف.

(١٨) هذه مراتب الطريق من الناحية النظرية أما مراتب الطريقة فهى عامة كالآتى:

- المريد. (يسمى أحيانا درويشا)
- الخليفة
- خليفة الخلفاء (وهو برأس جماعة الخلفاء)
- نائب البندر (وبرأس خلفاء البندر)
- نائب المركز (وبرأس خلفاء قرى المركز)
- نائب المحافظة (وبرأس جميع خلفاء المحافظة)
- شيخ عموم الطريقة.

النقباء: ومراتب النقباء عادة كالآتى:

١ - نقيب خدم ثم نقيب للقهوة ثم نقيب للطعام ثم نقيب لمجلس الذكر ثم نقيب للسجادة ثم نقيب للشيخ ثم خليفة.

ومن الملاحظ أن مراتب الطريقة هذه مراسيم ونظم استحدثت بعد القرن السابع الهجرى.

(١٩) جامع الأصول للكشمخوى من ص ٧٨ إلى ٨٣ باختصار.

ثم يقول الكشمخوى: «واعلم أن الإفراط من الصمت مضر بالحكمة، والإفراط من السهر مؤذ للحواس، والإفراط من الخلوة يؤدى إلى الاختلاط، لكن خير الأمور أوسطها، وهو مع ذلك يجاهد نفسه إلى أن يزيل أخلاقه الذميمة من العجب والرياء، والكبر والحسد، والبخل والحقد، واليأس والقنوط من رحمة الله، وحب الجاه، واتباع الهوى، والتذلل للدنيا، والشماتة والجبن، والتهور والغل والغش، فهذه وأمثالها من صفات القلب، ومغارس الفواحش فيه، ومنابت الأعمال المحظورة»(٢٠).

أما المرتبة الرابعة فهى: «مرتبة التقريب، وبعد أن يدخل السالك الصادق إلى الخلوة بشروط، ويداوم الذكر ولا يتركه ساعة حتى يصير الذكر له بمثابة النفس يجرى من غير اختيار ولا تقصد.. فإذا حصل له هذا اتسعت له ميادين الله ومرافق أسراره»(٢١).

هذا هو المنهج المتبع للانتساب للطريق، ثم مراتب الطريق. غير أننا نلاحظ أنه مما أساء إلى الطرق الصوفية تلك الرخص والإجازات التى تمنح لكل من هب ودب، ولهذا نجد أن الكثير من هؤلاء الأتباع لم يحفظوا عهدًا ولا ذمة، فنلمس أن «البعض يلجأ إلى التلصص فى الدخول إلى زمرة الصوفية، عن طريق الحصول على إجازة من شيخ معتمد فى الطريق، وهذه الإجازة تصريح له بتربية المريدين فى هذه الطريقة، وما إن يحصل عليها حتى يسخرها فى سبيل أهوائه ومطامعه، فيبيع دينه بدنياه ابتغاء عرض زائل، وحياة تافهة حقيرة كلها غش وخداع.

أمثال هؤلاء من السفلة كانوا سببًا فى تشويه معالم الطريق، وانصراف الناس عنها، فالذى هاجم الصوفية إنما هاجم هؤلاء الأدعياء، وظن أنهم يمثلون كل الصوفية والصوفية من هؤلاء براء»(٢٢).

مراسيم الطريق الصوفى ونظمه:

بعد أن تناولنا مراتب الطريق، نقدم صورة لمراسيم الطريق الصوفى، حتى تتضح الملامح النظامية والشكلية للطرق الصوفية.

والمراسيم التى سأتحدث عنها الآن مع كونها خاصة بإحدى الطرق الصوفية، تكاد تكون نفس مراسيم الطرق الصوفية الأخرى الموجودة فى مصر. وهذه المراسيم معظمها، إن لم يكن كلها، عرفت بعد القرن السابع الهجرى حينما حاول خلفاء الطريق وضع مراسيم ونظم لأتباعهم فى الطريق.

ويصور لنا مراسيم الطريق الصوفى المرحوم السيد الغنيمى التفتازانى والد الأستاذ الدكتور أبو الوفا التفتازانى شيخ الطريقة الغنيمية بمصر، وشيخ مشايخ الطرق الصوفية من خلال حديث له مع أحد محررى مجلة «الدنيا»(٢٣).

يقول السيد الغنيمى التفتازانى: «أول ما بدأت به حياتى الصوفية أنى كنت نقيبًا للخدم -

---

(٢٠، ٢١) جامع الأصول للكشمخوى ص ٨٣، ٨٤.

(٢٢) من قادة الفكر الصوفى السيد إبراهيم الدسوقى للأستاذ عز الدين خلف الله ص ٢٦٣.

(٢٣) ذكر الحديث ونقله: الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى فى كتابه الصوفى المجدد ص ٥٠ إلى ٥٢.

الأحذية – أتولى حراستها للذاكرين، ثم نقيبًا للقهوة، وأزاول عملها وسقياها، ثم نقيبًا للطعام أعمل بيدى فى طهيه وأحمله إلى الآكلين، وأصب على أيديهم الماء بعد أن يفرغوا منه، ثم نقيبا لمجلس الذكر أفتتحه وفق أصوله قعودًا وقيامًا، وأختتمه فى النهاية على حسب ما تقتضيه روح الطريقة من نظم، ثم نقيبًا للسجادة أحملها فى المواكب، وأقف خلفها بعصاى عدد قيام الحضرات، ثم نقيبًا للشيخ أتولى بنفسى خدمته فى طعامه وشرابه، وفى نضو الأضوار عن ملابسه، ثم أذنْت منه بعدئذ بالتسليك، وتلك هى مرتبة الخلافة الصوفية. ومن ثم دعيت إلى الخلوة حتى أستكمل النهوض بتعاليم الطريق جميعًا، فإن الخلوة واجب لا يعزب أحد الخلفاء عن أدائه، وإنه لا يدهشك أن تعلم بأن حلقاتها لا تتم إلا فى سنوات ثلاث، فيختلى الإنسان فى العام الأول أربعين يومًا، ويختلى فى الثانى أحد عشر يومًا، ويكتفى فى العام الثالث بثلاثة أيام.

التنظيمات الإدارية للطرق الصوفية:

أسس صلاح الدين الأيوبى خانقاه[٢٤] سعيد السعداء، الذى يعد أول خانقاه أقيم للصوفية بمصر، كما يعد أول تنظيم إدارى للطرق الصوفية.

وبعد ذلك نلاحظ أن أهم العصور التى اهتمت بالتنظيمات الإدارية للطرق الصوفية فى مصر هو العصر المملوكى، حيث انتظمت فيه الصوفية فى جماعات مرتبة داخل الخانقاوات التى أنشئت بكثرة فى هذا العهد. «ومن مظاهر تنظيم الصوفية فى العصر المملوكى كيفية تقدم المريد للجماعة، ثم وصوله إلى درجة النقابة فالخلافة، ثم تحدثه عن أتباعه ومريديه واتصاله بهم، ثم اتصال الشيخ بالجميع حتى يسهل عليه بث ما يريده من تعاليم، وتلقين ما يراه من أوامر وأحيط ذلك كله بسياج طاعة الشيخ»[٢٥].

وقد تطورت بعد ذلك التنظيمات الإدارية للطرق الصوفية فى العصور التالية[٢٦] حتى أصبحنا نجد فى العصر الحديث أن شيخ مشايخ الطرق الصوفية يعين بقرار من رئيس الدولة.

وهذه التعقيدات والتنظيمات الشكلية والإدارية المختلفة لم يعرفها أصحاب الطريق فى القرن السابع الهجرى فكان الطريق على ما قلنا عهدًا بين شيخ ومريد يريد أن يصحبه فى طريق الله فيعاهد المريد شيخه على التوبة والإنابة إلى الله وذكره.

---

(٢٤) أصل كلمة خانقاه فارسية تطلق على المبانى التى تقام لايواء الصوفية الذين يخلون فيها للعبادة وقد انتشرت هذه المبانى منذ القرن الحادى عشر، وفى العهد العثمانى سميت هذه المبانى (تكايا) وخصصت لإيواء الدراويش الذين ينقطعون للنسك والعبادة.

(٢٥) بحث «الطرق الصوفية» للدكتور التفتازانى بمجلة كلية الآداب. مجلد ٢٥ ص ٦٤.

(٢٦) تطورت التنظيمات الإدارية للطرق الصوفية فى مصر فى القرون التالية من أهمها أنه «أصبح للطرق الصوفية منذ القرن ١٩ الميلادى أو ما قبله بقليل: مشيخة عامة لصاحبها التكلم على جميع الطرق، وأصبح لكل طريقة شيخ ولكل شيخ خلفاء فى القرى، ونواب فى المراكز والمديريات ولكل خليفة مريدون والشيخ يدير أمر الخلفاء، والخليفة أمر المريدين من حيث إرشادهم ومراقبتهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر. وعرف رئيس الصوفية بشيخ مشايخ الطرق الصوفية.

المرجع السابق ص ٦٦. نقلا عن الخطط التوفيقية وتاريخ الجبرتى والنجوم الزاهرة.

ملامح الطرق الصوفية وخصائصها:

ملامح الطريق الصوفى على ما ذكرنا:

١ - شيخ.
٢ - ومريد.
٣ - وعهد بينهما.

أما وأهم خصائص الطرق الصوفية فهى:

١ - الذكر.
٢ - السماع.
٣ - الأحزاب والأوراد.
٤ - الموالد.

ملامح الطريق الصوفى

أولا - الشيخ:

الشيخ بمثابة الأستاذ للمريد. فالمريد كالطالب والطالب لا يستطيع أن يتقدم فى دروسه بدون موجه ومرشد (ولا يستطيع الفرد - فى نظر الصوفية أن يسلك هذا الطريق بمفرده، لأنه طريق صعب متشعب المسالك كثير المنحنيات ملىء بالصعاب، يتربص بسالكيه أعداء أشداء فى حاجة إلى جهاده، ومن هؤلاء الأعداء: الشيطان والنفس والهوى - لذلك لابد لمن يسلك هذا الطريق الصعب من مرشد أو هاد يأخذ بيده. هو الشيخ[٢٧].

فالشيخ هو الذى يحدد لمريده طرق الوصول إلى الله ويساعده على السير. والشيخ المسلك هو «الذى سلك الطريق على يد شيخ واصل، فترقى فى المقامات من مقام التوبة إلى مقام المشاهدة... ثم عاد بعد اعتلاء تلك المقامات لقيم الشريعة وسلك الناس فى مراحل الطريقة، ويفتح لهم بإذن الله أبوابا ومنافذ يشرفون منها على أضواء الحقيقة[٢٨].

ويقول شهاب الدين السهروردى «ولابد للمريد من شيخ مرشد إلى الحق يرشده ويلقنه الذكر ويلقى فى روعه النور، فإن تلقين الشيخ يلقح باطن المريد ويسرى فيه كأنما يلقح من سراج، فعلى المريد اختيار الشيخ الصالح المشهود له بالعلم والمعارف واتقاء المحارم»[٢٩].

---

(٢٧) السيد أحمد البدوى للدكتور سعيد عاشور ص ١٨٣.
(٢٨) المدخل إلى التصوف للمنوفى ص ٦١.
(٢٩) عوارف المعارف للسهر وردى ص ٧٠.

وقال ابن عطاء الله السكندرى «من لم يكن له شيخ يوصله إلى سلسلة المتابعة فهو فى الطريق لقيط لا أب له، وفى المعرفة دعى لا نسب له[٣٠].

أما عن الشروط والمواصفات المطلوبة فى الشيخ فيحدثنا عنها الإمام الجنيد بوضوح ويقول: «لا يستحق أن يكون شيخا حتى يأخذ حظه من كل علم شرعى، وأن يتورع عن جميع المحارم، وأن يزهد فى الدنيا، وألّا يشرع فى مداواة غيره إلّا بعد فراغه عن مداواة نفسه، وحتى يكون على علم يهدى به العباد فإذا مرض مريده بسبب شبهة فى علم التوحيد داواه، وإذا تحير فى مسألة من مسائل الفقه أفتاه، ويشترط أن يكون لديه القناعة بالغنى عن الناس، وأن يخاف ويخشى من المعاصى والأدناس، وأن يلازم العمل بالكتاب والسنة.. يزن أقواله وأفعاله بميزان الشريعة والطريقة فإن رأيت منه شيئا مخالفًا للشرع فاتركه حتى وإن كان ذا حال صحيح، فما عليك فى رده بحكم الشرع من بأس ولا تتخذه مرشدا»[٣١].

ومن ذلك فإن أهم شروط الشيخ الذى يلقى المريد إليه نفسه أن يكون «ذا ذوق صريح، وهمة عالية، وحالة مرضية، وبصيرة نافذة. فمن كان فيه خمسة لا تصح مشيخته: الجهل بالدين، وإسقاط حرمة المسلمين، والدخول فيما لا يعنى، واتباع الهوى فى كل شىء، وسوء الخلق من غير مبالاة»[٣٢].

وعلى ذلك نجد أن الشيخ «لا يقتصر على لبس الزى والهيئة وإرخاء العذَبة وحضور الولائم، وتقول له نفسه من حين حصل لك الاعتقاد والتلامذة: أنت بخير كبير. وكلما كثر أتباعه ومعتقدوه اغتر وحمد الله، وكلما قلّوا انقبض واغتم وسخط فى الباطن على الله. بل لا ينبغى الالتفات لهذه الأمور بوجه من الوجوه، فشأن الفقير دوام الاقبال على الله باطنا وظاهرا بأنواع القربات والعبادات، فهو فى غفلة عن أحواله الظاهرة وهذا أهل حضرة السلطان ليس لهم نظر فى حال مجالسته إلى ظاهرهم، ولا إصلاح عمامتهم، ولا وسخ ثيابهم، ولا إلى سجادة يجلسون عليها، ولا غير ذلك من أحوال الغافلين عنه»[٣٣].

«وواجب الشيخ أن يتعرف على أحوال مريديه ويتفقدهم ويتابع ظروفهم. ومن ناحية أخرى ينبغى عليه ألا يتفاخر بالمشيخة، أو لقب شيخ، هذا كلام صحيح ليس فيه كذب بخلاف لفظ السيادة والمشيخة فقد لا يكون سيدا ولا شيخا عند الله تعالى فيقع الفاعل له ذلك فى الكذب. هذا الذى ينبغى للشيخ أن يظنه بنفسه دائما فيحصل من لم يعطه على ذلك. وأما التلميذ فهو مأمور بالأدب معه فلا يناديه باسمه فقط من غير لفظ سيادة أو مشيخة أو نحوها. ولا بألقابه المذمومة وإن كان حقا»[٣٤].

وينبغى على الشيخ مراعاة كرامة مريده فها هو ذا سيدى أبو العباس المرسى رضى الله عنه من دقته

---

(٣٠) بداية الطريق للمنوفى ص ٦٩.

(٣١) الرسالة القشيرية ص ٩٠.

(٣٢) جامع الأصول ص ٥٣، ٥٤.

(٣٣) الأنوار القدسية فى آداب العبودية للشعرانى ص ٣٤.

(٣٤) المرجع السابق ص ٣٤.

فى مراعاة الكرامة الإنسانية للمريدين، أنه كان يكره للأشياخ إذا جاءهم مريد أن يقولوا له: قف ساعة، ويقول. إن المريد يأتى إلى الشيخ بهمته المتوقدة فإذا قيل له، قف ساعة، طفئ ما جاء به»[٣٥]

ثانيا - المريد:

إذا كان الشيخ يمثل الزاوية الأساسية فى الطرق الصوفية فإنه بدون وجود مريدين لهذه الطرق ما قامت ولا كانت هناك طرق صوفية.

والمريد هو سالك الطريق الذى يسير فى الطريقة حسب إرشادات شيخه فيسلك طريقه كما يرسمه له شيخه حتى يصل إلى غايته.

ويمكن أن نلخص خطوات المريد نحو الطريق فى خطوات ثلاث تبدأ بالتوبة ﴿**وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون**﴾. النور - آية ٣١.

الخطوة الثانية هى أخذ العهد من الشيخ بطاعة الله ورسوله والسير فى الطريق.

والخطوة الثالثة هى التلقين وهو «تعليم الشيخ للمريد كيفية الذكر، نطقًا وبدءا فى مرحلته الأولى، ويتجدد التلقين كلما قطع المريد مرحلة من مراحل القرب من الله سبحانه وتعالى»[٣٦].

ومن ذلك يتضح لنا أن أهم واجبات المريد نحو شيخه طاعة أوامر شيخه. قال أبو الحسن الشاذلى: «عليك أيها المريد بالعكوف على أعتاب شيخك، فإنك لو علمت ما انطوى عليه الشيخ ما برحت عن أبوابهم ولأتيتهم سعيًا على الوجه»[٣٧].

وواجب المريد ألا يكتم أى سر عن شيخه بل ينبغى عليه أن يذكر له كل ما يجول بخاطره من أسرار وخطرات وهموم ومشكلات فهو طبيبه ومداويه.

وقد ينتقد رجال التصوف والطرق الصوفية من أجل ذلك. وقد تفسر إطاعة المريد إطاعة عمياء لشيخه وإخباره بكل أحواله وأسراره بأن فى ذلك محوًا لشخصية الفرد وضعفًا وانحلالاً لمقوماتها وقضاء على إرادته وحريته واختياره.

وقد عبر عن ذلك بعضهم بقوله: «الصوفية كثيرا ما يشبهون هذه الصلة بصلة الطبيب بالمريض، والمرض داء نفسى دفين، فلا تجوز المقارنة بوسائل التربية الحديثة، وإنما بالمحلل النفسى وفى العلاج النفسى تقوم مثل هذه العلاقة حين يسلم له المريض قياده ويطلعه على كل أسراره، ولا يقدم على أمر حتى يستأذنه، كل ذلك لضرورة العلاج الذى يمتد سنين، ويستند كل من النظامين إلى فكرة الإيحاء الغيرى التى تقتضى من جانب المريد أو المريض قابلية تامة للتصديق أو الاستهواء. وتتشابه الطريقتان كذلك فى الاستناد إلى حتمية الثنائية إذ لا يتسنى العلاج إلا بوجود طرفين: محلل ومريض،

---

(٣٥) كتاب أبو العباس المرسى للدكتور الإمام الأكبر للشيخ عبد الحليم محمود ص ١٨.

(٣٦) السيد البدوى للإمام الدكتور عبد الحليم محمود ص ١٨.

(٣٧) المفاخر العلية لابن عياد ص ٧٧.

أو شيخ ومريد، كذلك يبدو التماثل شديدًا، إذا علمنا أن الصوفية كانوا على وعى بفكرة اللاشعور واستحالة إدراك المريض إلى مكوناته مع ماله من أثر فى السلوك(٣٨).

ولتوضيح ذلك نقتبس نصًا للجنيد: إن أمراض الأبدان يعبر عنها المريض بما يجد من ذاته واصفًا ما حل به من بلائه. أما علل القلوب فإن المريض مقصر عن بلوغ نعته لذلك نختلف عن الوصف لما هنالك... فالطبيب الخبير البصير يكشف لأهل الأمراض عما وجدوا وينبئهم عن زوال ما فقدوه حتى كأن الموصوف بعبارة اللسان منظور إليه بحقيقة العيان، من أجل ذلك كله كان الطبيب أعلم بداء السقيم من نفسه وأحق أن يصف له من الدواء ما يكون سببًا لبرئه(٣٩).

وينبغى أن نفهم أنه «ليس هناك ما يبرر إرجاع هذه الصلة إلى مبدأ الاعتراف عند بعض المذاهب المسيحية، فالاعتراف المسيحى متصل بأصل من أصول الدين، أما الاعتراف الصوفى فهو جزء من نظام أخلاقى ولا صلة له بأية مسألة اعتقادية »(٤٠).

وواجب المريد عدم الاعتقاد بعصمة الأولياء والمشايخ لأنهم ليسوا أنبياء،يقول القشيرى ناصحًا: «لا ينبغى للمريد أن يعتقد فى المشايخ العصمة. بل الواجب أن يذرهم وأحوالهم فيحسن بهم الظن ويراعى الله تعالى وحده فيما عليه من الأمر - والعلم كافيه فى التفرقة بين ماهو محمود وماهو معلول »(٤١).

ولقد ترك مشايخ الطرق الصوفية للمريد حرية اختيار الشيخ والطريقة التى يرغبها فإذا ما تم له اختيار الطريقة وشيخها ينبغى الالتزام به والسير على نهجه وخطاه.

ويضع لنا الشيخ الحداد فى رسالته (آداب سلوك المريد) بعض آداب المريد مع شيخه فيقول: «إذا أردت - أيها المريد - من شيخك أمرًا أو بدا لك أن تسأله عن شىء فلا يمنعك إجلاله، والتأدب معه عن طلبه منه، وسؤاله عنه، وتسأله المرة والمرتين والثلاث فليس السكوت عن السؤال والطلب من حسن الأدب . اللهم إلا أن يشير عليك الشيخ بالسكوت أو يأمرك بترك السؤال. فعند ذلك يجب عليك امتثاله، وإذا منعك الشيخ عن أمر أو قدم عليك أحدًا فإياك أن تتهمه ولتكن معتقدًا أنه قد فعل ما هو الأنفع والأحسن لك»(٤٢) ويقول أيضًا: «وإذا وقع منك ذنب أوجد عليك غضب الشيخ بسببه فبادر بالاعتذار إليه من ذنبك حتى يرضى عنك، وإذا أنكرت قلب الشيخ عليك، كأن فقدت منه بشرًا كنت تألفه أو نحو ذلك، فحدثه بما وقع لك من تخوفك تغير قلبه عليك بشىء أحدثته فتتوب عنه، أو لعل الذى توهمته لم يكن عند الشيخ وأنك [illegible] إليك ليسوءك به»(٤٣).

---

(٣٨) الفلسفة الأخلاقية للأستاذ الدكتور أحمد صبحى ص ٢٤٨.

(٣٩) ذكره الأستاذ الدكتور صبحى فى كتابه الفلسفة الأخلاقية ص ٢٤٨ عن «رسائل الجنيد» تحقيق الأستاذ الدكتور على حسن عبد القادر. طبعة لندن سلسلة [جب] التذكارية الكتاب رقم ٢٢ ص ١٠، ١٢.

(٤٠) التصوف: الثورة الروحية فى الإسلام ص ٢٦٨ للأستاذ الدكتور أبو العلا عفيفى.

(٤١) الرسالة القشيرية جـ ٢ ص ٧٤٣.

(٤٢) قوت القلوب الجزء الأول ص ١٩٤.

(٤٣) رسالة آداب سلوك المريد للشيخ الحداد ص ٣٠.

وأيضا من أهم آداب المريد مع شيخه الإنصات لكل ما يقوله، وحسن الظن بشيخه وأن يكون مستعدًا دائمًا فى كل الأحوال لخدمة شيخه.

يقول أبو طالب المكى فى قوت القلوب «اعلم أن المريد لا بد له من خصال سبع: الصدق فى الإرادة وعلامته إعداد العدة، ولابد له من السبب إلى الطاعة، وعلامة ذلك هجر قرناء السوء، ولا بد له من المعرفة بحال نفسه. وعلامة ذلك استكشاف آفات النفس، ولابد له من مجالسة عالم بالله، وعلامة ذلك إيثاره على ما سواه، ولابد له من توبة نصوح، بذلك يجد حلاوة الطاعة ويثبت على المداومة. وعلامة التوبة قطع أسباب الهوى، والزهد فيما كانت النفس راغبة فيه. ولابد له من طعمة حلال لا يذمها العلم، وعلامة ذلك الحلال المطالبة به، وحلول للعلم فيه فيكون بسبب مباح وافق فيه حكم الشرع، ولابد له من قرين صالح يؤازره فيه على ذلك، وعلامة القرين الصالح معاونته على البر والتقوى، ونهيه إياه عن الإثم والعدوان»[٤٤].

وينصح الشعرانى المريد حتى يصبح فى طريق الصوفية ويسير على نهج إسلامى سليم ليس به ابتداع وألا يدخل فى طريق القوم إلا بعد تضلعه من علم الشريعة والحديث، وإلا فيخلف عليه الزندقة والابتداع.. ومن شأنه أن يقرأ شيئًا من عقائد السنة قبل دخوله فى طريق الفقراء ليصح اعتقاده مما يتوهمه غالب الخلق[٤٥].

وبهذا يصبح المريد مريدًا صادقًا يسير على نهج إسلامى ويتبع الطريق المستقيم والطريقة المثلى ويهتدى بنور شيخه وأستاذه الأمين.

ثالثا - العهد:

إذا كان الطريق يتشكل ويتكون من شيخ ومريد فإن الذى يربط بينهما العهد والبيعة، والعهد: هو أوثق رباط بين رجلين تحابا فى الله وتعاهدا على طاعته.. إنها بيعة لله، وفى لله، وبالله.

قال تعالى ﴿**لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم، فأنزل السكينة عليهم، وأثابهم فتحا قريبا**﴾ آية ١٨ - الفتح.

وقال رسول الله ﷺ فيما رواه الإمام البخارى رضى الله عنه من حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه - وهو أحد النقباء ليلة العقبة - أن رسول الله ﷺ قال: وحوله جماعة من أصحابه «بايعونى على ألاَّ تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا. ولا تزنوا. ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا فى معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب فى الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئا ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه. فبايعناه على ذلك».

---

(٤٤) قوت القلوب الجزء الأول ص ١٩٤.

(٤٥) الأنوار القدسية فى آداب العبودية للشعرانى ص ١٢٣، ١٢٤.

ويقول تعالى ﴿**إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم**﴾ آية ١٠ - الفتح.

والعهد والمبايعة للشيخ معناه: الأخذ والمصافحة، ومبايعة لرسول الله ﷺ فكل بيعة حصلت بعد بيعة الرسول ﷺ هى فى الحقيقة تجديد لبيعته، والآية الكريمة السابقة توضح أن بيعة الرسول هى بيعة لله على ما ذكرنا. ﴿**إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما**﴾ ١٠ - الفتح.

والبيعة عقد إلزامى يلزم المتعاقدين بكل ما فى بنود البيعة، والبيعة أشد وأوثق من الإيمان ﴿**وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا**﴾ ٩٢ - النحل.

ومهما تعددت صور وكيفيات أخذ العهود لكل طريقة، إلا أنها تتفق فى أن واجب المريد الذى يرغب فى أخذ العهد عن شيخ ينبغى على هذا الشيخ أن يأمره بالتطهرُّ من الحدث والخبث ليتهيأ لقبول ما يلقيه عليه، ويتوجه إلى الله تعالى. ويسأله القبول ويتوسل إليه فى ذلك بسيدنا ونبينا محمد ﷺ، لأنه الواسطة بينه وبين خلقه، ويضع يده اليمنى على يده اليمنى.. ثم يقول للمريد بعض سور القرآن وآيات المواثيق والعهود ويقول المريد مثلما يقول له شيخه..، ثم يقول له الشيخ: قل اللهم إنى أشهدك وأشهد ملائكتك وأنبياءك ورسلك وأولياءك أنى قد قبلته شيخا فى الله ومرشدًا وداعيًا [ثم يقول الشيخ]: اللهم إنى أشهدك أنى قد قبلته ولدا فى الله تعالى فاقبله وأقبل عليه وكن له ولا تكن عليه وانظر غايتك إليه(٤٦).

أهم خصائص ومميزات الطرق الصوفية

أولا - لبس الخرقة:

إذا كان الطريق على ما بينا يقوم على شيخ ومريد بينهما عهد، فإن أهم خصائص الطريق لبس المرقعة أو الخرقة الصوفية.

ويكاد يجمع أصحاب الطرق الصوفية المختلفة أنهم أخذوا الخرقة من فلان عن فلان فى سلسلة عنعنة طويلة تنتهى إلى الإمام على كرم الله وجهه.

يقول الهجويرى: وقد أمر مشايخ هذه الطريقة المريدين بأن يتحلوا بالمرقعات ويتزينوا بها، وفعلوا هم أيضا ذلك. لتكون لهم علامة بين الخلق، ويكون الخلق رقباء عليهم، فإذا خطوا خطوة على خلاف، فإنهم يطلقون فيهم لسان الملامة، وإذا أرادوا إتيان المعصية فى تلك الثياب. فإنهم لا يستطيعون النجاة من الخلق(٤٧).

---

(٤٦) ظهور الحقائق العطاس ص ٣٠.

(٤٧) كشف المحجوب للهجويرى ص ٢٤٥ .

ثم يقول: وفى الجملة: المرقعة زينة لأولياء الله عز وجل. يعز بها العوام ويذل بها الخواص، وعز العوام هو أنهم حين يرتدونها يحترمهم الخلق، وذل الخواص هو أنهم حين يرتدونها ينظر إليهم الخلق بعين العوام، ويلومونهم بذلك فهى لباس النعم للعوام، وجوشن البلاء للخواص، لأن أكثر العوام يكونون فيها مضطرين حين تقصر أيديهم عن عمل آخر، ولا تكون لهم آلة أخرى لطلب الجاه، فيطلبون بها الرياسة، ويجعلونها سببا لجمع النعم، ثم إن الخواص يقولون بترك الرياسة ويؤثرون الذل على العز. فتكون لهؤلاء ولأولئك نعماء[٤٨].

ويقول ابن زروق فى كتاب قواعد التصوف: لباس المرقعة أعذر على دفع الكلف، وأذهب للكبر، وأقرب للحق، مع الاقتداء بعمر رضى الله عنه إذ لبسها مع وجود غيرها لصلاح قلبه، ألا تراه حين ألبس غيرها قال: (أنكرت نفسى)[٤٩].

ويعتمد الصوفية فى لبس الخرقة على حديث نبوى، ويقولون إنه سنة عن النبى ﷺ، فالهجويرى مثلا يقول[٥٠]:«إن لبس المرقعة شعار المتصوف، ولبس المرقعات سنة، ومن هنا قال الرسول عليه الصلاة السلام[٥١]: «عليكم بلباس الصوف تجدون حلاوة الإيمان فى قلوبكم[٥٢]».

وأرجو أن أكون مصيبًا، وألا أكون مغاليًا حين أقول: إن هذا الحديث الذى رواه الحاكم فى «المستدرك» واهى الضعف، وذلك لأن الحبيب المصطفى ﷺ كان يرتدى الصوف وغيره، كما لا أتصور أن لبس الصوف يجعل فى قلب المسلم حلاوة الإيمان فهناك ملايين من البشر يرتدون الصوف ولا إيمان عندهم ولا يشعرون، أو يستشعرون حلاوة الإيمان فى قلوبهم.

فإذا لم يكن المريد يملك الإيمان الحقيقى فإنه لن يشعر قط بحلاوته، وتكون خرقة الصوف مجرد خرقة الصوف لا غير، لا معنى ولا جوهر لها، ولهذا يقول الصوفية: وشروط لبس المرقعة كلُبس الكفن، لأنهم يقطعون الأمل من لذة الدنيا ويطهرون قلوبهم من راحتها، ويبقون عمرهم كله على خدمة الحق جل جلاله، ويبرأون تماما من الهوى، ومن ثَم يغرى الشيخ المريد بإلباسه الخرقة، فهو يقوم بحقها، ويجتهد تماما فى أداء هذا الحق ويحرم على نفسه رغباتها[٥٣].

وقال الإمام السهروردى- قدس الله روحه- فى عوارف المعارف: «لبس الخرقة ارتباط بين شيخ وبين المريد، وتحكيم من المريد للشيخ فى نفسه، والتحكيم شائع فى الشرع بمصالح دنيوية، فلماذا ينكر المنكر لبس الخرقة على طالب صادق فى طلبه؟، ويقصد شيخًا بحسن ظن وعقيدة يحكِّمه فى نفسه لمصالح دينية، وليرشده ويهذبه، ويعرفه، طريق المواجيد ويبصره بآفات النفس، وفساد الأعمال،

---

(٤٨) المرجع السابق.

(٤٩) قواعد التصوف لابن زروق ص ٨٨.

(٥٠) كشف المحجوب للهجويرى ص ٢٤١.

(٥١) رواه الحاكم فى المستدرك عن أبى امامة (شرح الجامع الصغير جـ ٢ ص ١٠٧).

(٥٢) لم أجده فى الكتب الستّة وقد ذكره الحاكم فى المستدرك وتعقبه البيهقى فى شعب الإيمان.

(٥٣) كشف المحجوب للهجويرى ص ٢٥٢.

ومداخل الله، ويسلم نفسه إليه، ويستسلم لرأيه، واستصوا به، فى جميع تصاريفه، فيلبسه الخرقة إظهارًا للتصرف فيه، فيكون لبس الخرقة علامةً للتفويض والتعليم، ودخوله فى الشيخ كدخوله فى حكم الله وحكم رسوله، وإحياء سنة المبايعة مع رسول الله ﷺ»[٥٤].

ويقول صاحب ظهور الحقائق :«إذا أراد الشيخ أن يلبسه - أى يلبس المريد - الخرقة، فلينطهر ويأمره بالتطهر، ثم توضع الخرقة بين أيديهما، ويقرأ الفاتحة ويلبسها الشيخُ بيده المريدَ قاصدًا بذلك الإنابة عن الله تعالى ورسوله، ثم يذكر له نيتها كأن يقول ألبسكها كما ألبسنى إياها شيخى فلان إلى آخره»[٥٥].

وكما قلنا إن مشايخ الطرق يرفعون سلسلة خرقتهم للإمام على رضى الله عنه حتى أن العلامة ابن خلدون يقول فى مقدمته بدون لف أو دوران: «إن الصوفية نقلوا نظامهم عن التشيع، حتى أن الصوفية لما أسندوا لباس خرقة التصوف ليجعلوه أصلا لطريقتهم ونحلتهم رفعوه إلى على رضى الله عنه»[٥٦].

وبالطبع فإن كلام العلامة ابن خلدون به مبالغة شديدة فإنها تأثيرات ضعيفة لا ترقى إلى درجة أن يقول الأستاذ العلامة أنهم نقلوا نظامهم الصوفى عن التشيع.

وحديث ابن خلدون سيجرنا بالطبع إلى الحديث عن صلة التصوف بالتشيع.

صلة التصوف بالتشيع:

يلاحظ بعض الباحثين أن هناك التقاءً فى كثير من الأقطار بين التشيع والتصوف، إذ الدين لدى الفريقين طاعة رجل، فالمرجع فى أحكام الدين لدى الشيعة هو الإمام كما أن من لم يكن له شيخ على حد تعبير البسطامى فشيخه الشيطان، ومصدر العلم لدنى أو إلهى لدى الفريقين، وقد أثبت الشيعة العصمة لأئمتهم كما أثبت الصوفية الحفظ لشيوخهم[٥٧]، ثم استقى الصوفية عن الشيعة فكرة الباطنية وأركانها من الغوث والقطب والأوتاد والأبدال والنجباء، وفى ذلك يشير ابن خلدون إلى أن الصوفية المتأخرين قد خالطوا الاسماعيلية وأشرب كل واحد منهم مذهب الآخر واختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم[٥٨].

ويحدثنا بعضهم عن الصلة بين التصوف والتشيع[٥٩] فيقول: «والواقع أن الصلة وثيقة بين التشيع والتصوف، فعلىّ هو معبود الشيعة، وهو إمام الصوفية، أليس هو الذى أشار إلى العارفين حين قال لكميل بن زياد: أولئك الأقلون عددا الأعظمون عند الله قدرا، هجم بهم العلى على حقيقة الأمر

---

(٥٤) عوارف المعارف للسهروردى ص ٧٥ وظهور الحقائق ص ٢٢.

(٥٥) ظهور الحقائق للعطاس ص ٣١.

(٥٦) مقدمة ابن خلدون ٤١٣ وذكر النص أيضا الأستاذ الدكتور سعيد عاشور فى كتابه عن السيد البدوى ص ٢٥.

(٥٧) الصوفية وأصحاب الطرق على الخصوص نفوا العصمة عن شيخ الطريق.

(٥٨) بحث عن التصوف: ايجابياته وسلبياته للاستاذ الدكتور أحمد صبحى بمجلة الفكر العربى ص ٣٧٥.

(٥٩) التصوف الاسلامى فى الأدب والأخلاق: الجزء الثانى للدكتور زكى مبارك ٣٣، ٣٤.

فباشروا حقيقة اليقين[٦٠] وقد حدثوا أن الجنيد أخذ الطريقة عن خاله سرى السقطى، وكان أخذها عن معروف الكرخى، ومعروف الكرخى أخذها عن على بن موسى الرضا»[٦١].

ويذكر أن «طبيعة الأشياء توجب أن يقترب التشيع والتصوف، فالشيعة انهزموا فى ميدان السياسة، والصوفية انهزموا فى ميدان الحياة[٦٢]، والاشتراك فى الهزيمة يقرب بين النفوس.. ومما يقارب بين المذهبين أن الشيعة والصوفية يؤمنون بالأسرار ويبحثون عن النجاة فى العوالم الغيبية، ولذلك تشابهت أوهامهم وظنونهم وأمانيهم، وتقاربهم فى مذاهبهم المعيشية والاجتماعية، وصرت ترى لديهم شمائل مشتركة فى تناول الأشياء وفهم الحياة والناس»[٦٣].

ورأينا أن التأثيرات الشيعية ضعيفة فى التصوف خصوصا فى تصوف أصحاب الطرق الصوفية كما قلنا، وهذه التأثيرات الشيعية الضعيفة فى التصوف وفى تصوف الطرق الصوفية على الأخص مبعثها إلى أن كل مشايخ الطرق الصوفية فى مصر ينتهى نسبهم إلى الإمام على[٦٤] المثل الأعلى للشيعة والصوفية، وإذا كان حب الإمام على رضى الله عنه يسهل عند البعض إبراز آثار شيعية فى الفكر الصوفى، فإن المسلمين جميعا يشاركون الشيعة فى حبهم الإمام على وآل البيت جميعا. فقد آخى النبى ﷺ بينه وبين الإمام على رضى الله عنه ثم إن عليا رضى الله عنه زوج ابنته البتول السيدة فاطمة الزهراء ووالد ريحانتى رسول الله ﷺ الحسن والحسين.

ألم يقل رسول الله ﷺ فيما ذكره - البخارى ومسلم - فى حديث الغدير «من كنت مولاه فهذا على مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» وقال رسول الله ﷺ: «إن عليا منى وأنا منه وهو ولى كل مؤمن» [حديث صحيح] وقول على نفسه: (فو الذى برأ النسمة إنه لعهد النبى إلىّ لا يحبنى إلا مؤمن ولا يبغضنى إلا منافق)[٦٥].

وقال رسول الله ﷺ: «على أخى فى الدنيا والآخرة» [رواه الطبرانى فى الكبير] وقال رسول الله ﷺ: «على مع القرآن والقرآن مع على لن يتفرقا حتى يردا على الحوض» [رواه الحاكم فى المستدرك عن أم سلمة].

إن المسلمين سنة وشيعة يتشاركون فى حبهم العظيم للإمام على كرم الله وجهه وكون الصوفية يجعلون على رأس سندهم وقمة سلسلتهم الإمام على كما يفعل الشيعة لا يجعلنا نغالى فى الأمر فنتهم الصوفية بأنهم أخذوا نظامهم فى التصوف عن التشيع.

الحق أن رأى العلامة ابن خلدون ومن نحا نحوه فى هذا فيه كثير من المغالاة الزائدة .

---

(٦٠) نقلها المرحوم الدكتور زكى مبارك عن رسائل إخوان الصفا جـ ١ ص ٢٩٨.

(٦١) النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٦٩.

(٦٢) هذه فكرة خاطئة سنناقشها فى موضعها المناسب من هذا الكتاب.

(٦٣) التصوف الاسلامى فى الأدب والأخلاق جـ ٢ ص ٣٥.

(٦٤) عدا طريقة واحدة هى الطريقة النقشبندية فينتهى نسب مشايخها إلى أبى بكر الصديق.

(٦٥) ضحى الإسلام للأستاذ المرحوم أحمد أمين جـ ٢ ص ١٢٢.

ثانيا - الذكر:

إذا كانت الخرقة من خصائص الطرق الصوفية ومميزاتها الظاهرة، فإن الذكر أيضا من أهم تلك الخصائص والمميزات.

وآيات القرآن الكريم تبين فى إشراق تام فضل الذكر.. يقول العلى القادر فى كتابه العزيز: ﴿فاذكرونى أذكركُمْ﴾(٦٦) ويقول: ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾(٦٧) ويقول: ﴿يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا. وسبحوه بكرة وأصيلا﴾(٦٨) ويقول: ﴿والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما﴾(٦٩).

وفى الحديث القدسى الذى رواه البخارى ومسلم (أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه حين يذكرنى، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه، وإن تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا وإن اقترب إلى ذراعا اقتربت إليه باعا، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة)(٧٠).

وأخرج الحاكم عن البراء مرفوعا: (من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير عشر مرات فهو كعتق نسمة)(٧١).

وأخرج ابن جرير فى تفسيره عن قتادة قال: (افترض الله ذكره عند أشغل ما تكونون، عند الضراب بالسيوف. فقال: ﴿يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرًا لعلكم تفلحون﴾. (آية ٤٥ - الأنفال).

سند الصوفية فى تلقين ذكر الله تعالى:

أخرج الإمام الحافظ جلال الدين السيوطى بعدة أسانيد أن الإمام على كرم الله وجهه قال: سألت رسول الله ﷺ: فقلت يا رسول الله دلنى على أقرب الطرق إلى الله عز وجل، وأسهلها على العباد، وأفضلها عند الله تعالى؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا على: عليك بمداومة ذكر الله تعالى سرا وجهرا» فقال على رضى الله عنه: كل الناس ذاكرون، وإنما أريدك أن تخصنى بشىء، فقال رسول الله ﷺ: «يا على: أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى. (لا إله إلا الله)، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع وضعن فى كفة، و (لا إله إلا الله) فى كفة لرجحت»، ثم قال رسول الله ﷺ. «يا على: لا تقوم

---

(٦٦) الآية ١٥٢ من سورة البقرة.

(٦٧) الآية ٢٨ من سورة الرعد.

(٦٨) الآيتان ٤١، ٤٢ من سورة الأحزاب.

(٦٩) الآية ٣٥ من سورة الأحزاب.

(٧٠)متفق عليه من حديث أبى هريرة.. رواه البخارى ومسلم وذكره الإمام الشهيد حسن البنا فى كتاب المأثورات ص ٧.

(٧١) من كتاب أعمال الفكر فى فضل الذكر لجلال الدين السيوطى صفحة ١٠، ١١.

الساعة، وعلى وجه الأرض من يقول (لا إله إلا الله)» فقال على: كيف أذكر-يا رسول الله؟، فقال رسول الله ﷺ: «غمض عينيك واسمع منى (لا إله إلا الله) ثلاث مرات، ثم قل أنت (لا إله إلا الله) ثلاث مرات وأنا أسمع، فقال ﷺ: لا إله إلا الله ثلاث مرات مغمضًا عينيه، رافعًا صوته وعلى يسمع: ثم قال على رضى الله عنه»(٧٢).

وقال شداد بن أوس كنا عند النبى ﷺ، فقال النبى ﷺ: «هل فيكم غريب؟ يعنى من أهل الكتاب، قلنا: لا، يا رسول الله فأمر بغلق الباب، وقال: ارفعوا أيديكم، وقولوا لا إله إلا الله، فرفعنا أيدينا وقلنا: لا إله إلا الله، ثم قال: الحمد لله، اللهم إنك بعثتنى بهذه الكلمة، وأمرتنى بها، ووعدتنى عليها الجنة، إنك لا تخلف الميعاد، ثم قال: ﷺ: ألا أبشروا فإن الله قد غفر لكم»(٧٣).

وإذا انتقلنا إلى الحديث عن فوائد الذكر نستطيع أن نقول مع الإمام القشيرى: ذكر الله بالقلب سيف المريدين، به يقاتلون أعداءهم، وبه يدفعون الآفات التى تقصدهم، وإن البلاء إذا أكل العبد. فإذا فزع بقلبه إلى الله يحيد عنه فى الحال كل ما يكرهه... وقال ذو النون المصرى: من ذكر الله تعالى ذكرًا على الحقيقة، نسى فى جنب ذكره كل شىء، وحفظ الله عليه كل شىء، وكان له عوضا من كل شىء(٧٤)، ويقول الشعرانى: أجمعوا - يقصد أهل الطريق - على أن الذكر إذا تمكن من القلب صار الشيطان يصرع إذا دنا من الذكر كما يصرع الإنسان إذا دنا من الشيطان، فيجتمع عليه الشياطين فيقولون: ما باله. فيقال: إنه دنا من ذاكر فصرع(٧٥).

وعلى ذلك فقد اعتمد سند تلقين الصوفية لمريدهم على سند تلقين الرسول ﷺ (لا إله إلا الله) جماعة وفرادى.

والذكر من أهم الوسائل إلى الوصول إلى الله تعالى، يقول القشيرى فى رسالته: «الذكر ركن قوى فى طريق الوصول إلى الحق سبحانه وتعالى بل هو العمدة فى طريق القوم، ولا يصل أحد إلى الله إلا بدوام الذكر»(٧٦).

ويقول الفخر الرازى: «فائدة الذكر إزالة الظلمة البشرية، فحضرة الربوبية منبع الأنوار، فلا جرم كان الاشتغال بحضرة ذى الجلال يفيد وصول أنوار الربوبية إلى باطن القلب، فتزول به ظلمات البشرية عن القلب والروح»(٧٧).

ويعبر التسترى عن خلاصة درسه الأول فى حديثه عن الذكر بأنه: «العلم بأن الله يراك فتشاهده

---

(٧٢) رواه النسائى وابن حبان والحاكم والغزالى فى الأحياء جـ١ ص ٣٠٥.

(٧٣) عن يعلى بن شداد رواه أحمد وفيه راشد بن داود وقد وثقه غير واحد به ضعف وبقية رجاله ثقات (مجمع الزوائد: جـ١٠ ص ٨١).

(٧٤) الرسالة القشيرية ص ٤٦٦.

(٧٥) الأنوار القدسية فى آداب العبودية للشعرانى ص ١٢٥.

(٧٦) الرسالة القشيرية ص ٢١٢.

(٧٧) لوامع لواقح البيانات للفخر الرازى ص ٢.

قريبًا منك ومن قلبك. وتفضله على نفسك وعلى جميع أحوالك»[٧٨].

ويتحدث التسترى عن ثلاثة أنواع من الذكر: النوع الأول: ذكر باللسان،والثانى: ذكر بالقلب. أما النوع الثالث: فهو ذكر الخاصة، وهو الذكر الموصل. والنوعان الأولان يدخلان فى نظر التسترى فى دائرة (المقطوع)، والثالث وحده هو المباشر الموصول الذى لا يقدر عليه إلا النخبة الممتازة فى الحياة الروحية، إن هذا النوع الخاص من الذكر هو واجب «كلية القلب» بوقوفه مستسلمًا فى حضرة الله الدائمة[٧٩].

وذكر الله دائمًا ذكرًا حقيقيًّا يجعل الذاكر يستغرق بكليته فى الله، فإذا ذكر الصوفى الله استغرق فيه بكليته، وحضر مع الله بجمعيته، فلم يشتغل بما سواه، ولم يغفل عنه حتى يستولى جلال الله على قلبه بعد أن غاب الذاكر فى ذكره، حينئذ ينكشف له بصحة وبال الغفلة، ويمحى من قلبه أثر كل علاقة وعلة، لأن تعلق القلب بالله يجعله فارغًا عن كل ما سواه، فالذّكر وسيلة لتخلية القلب عن كل هم، أو بالتعبير الفلسفى وسيلة لانفصال الذات عن كل موضوع خارجى، أو عن التعلق برغبة ما[٨٠].

وللذكر جانبان: «جانب سلبى يفرغ فيه القلب من كل هم» فما من زاد يتزوّد به السالك لمكابدة الأهواء، ومجاهدة الشهوات مثل الذكر، وما من وسيلة لتطهير القلب من كل هم إلا بالذكر، وذلك هو الجانب الروحى فيه، وهو الجانب الإيجابى[٨١].

وإذا أردنا[٨٢] أن نكون صورةً صحيحةً عن التدرج الطبيعى للتطور السيكولوجى لظاهرة الذكر، وجدنا أنه يبدأ من القاعدة إلى القمة، ومن الظاهر إلى الباطن، فى نفس الوقت.. من القاعدة إلى القمة بكبح النفس ونوازعها، ثم إزالة آثارها وترك القلب أو البصيرة أو الروح تحلق فى الملأ الأعلى، ومن الظاهر إلى الباطن باختراق حجب القلب فى كليته التى تقابل تمامًا ما يطلق عليه «يونج». اللاشعور المطلق، أو Collective unconsious ومعنى ذلك: أنه يمكن أن نرى فى الطور الناضج للذكر جانبى الفناء والبقاء، أو الموت والحياة، موت الآثار الفردية الخاصة بالإرادة المعنية بالأنانية، وحياة الروح التى تعيش مباشرة مع الله: أى أن هناك إخلاءً لعناصر معينة، وإحلالاً لأخرى مكانها حتى تعتاد النفس حياتها الروحية الرتيبة، التى تنقلب بعد ذلك إلى مجرد تلق من مصدر أسمى، إذ أنه ليس بها ما يمثل هذا الفرد بعينه، بل فيها ما ينطق أو ما يصدر عن الله فقط، وعلى ذلك يمكننا أن نفهم عبارات صوفية تتحدث عن الذكر، ويعرف ذلك لدى بعض صوفية القرن الثالث الهجرى «بالغيبة بالمذكور عن الذكر».

---

(٧٨) من التراث الصوفى: سهل عبد الله التسترى: الدكتور محمد كمال جعفر جـ١ ص ١٩٣.

(٧٩) من التراث الصوفى: سهل عبد الله التسترى: للدكتور كمال جعفر. الجزء الأول ص ١٩٣، ١٩٤.

(٨٠، ٨١) الفلسفة الأخلاقية فى الإسلام: الدكتور صبحى ص ٢٥٣.

(٨٢) التصوف طريقًا ومذهبًا: للدكتور محمد كمال جعفر ص ٢٢٧.

أنواع الذكر:

للذكر عدة أنواع: منه، ما هو ثناء على الله، مثل، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، ومنه، ما هو دعاء مثل،: «ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا»، ومنه، ما هو مناجاة، مثل، موقف المصلى فى الصلاة، فإن الصلاة مناجاة. ومنه، ما هو للرعاية فى الدنيا، مثل، طلب حماية الله، والنصر على الأعداء والشيطان، ومنه، ما هو للرعاية الأخروية كطلب زيادة الدرجات(٨٣).

ويعتبر ابن عطاء الله السكندرى الصلاة على النبى ﷺ نوعًا من الذكر فيقول(٨٤) قال تعالى فى كتابه العزيز: ﴿**إن الله وملائكته يصلون على النبى يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما**﴾، ومن هنا فإنا نعتبر الصلاة على النبى ذكراً وفى الحديث الشريف «الصلاة على النبى نور»(٨٥).

أحكام الذكر:

ينبغى إخراج كلمة (لا إله إلا الله) من مخارجها الصحيحة السليمة، ونطقها نطقًا لغويًا سليمًا، فأخص وأدل أذكار الصوفية هى لفظ الجلالة (الله) و«لا إله إلا الله»، وينبغى على المريد نطقها نطقًا سليمًا.. فأحكام الذكر «تتلخص فيما نص عليه الفقهاء وهى إخراج الكلمة، وضبط نقطها اللغوى، وهى موضع الصدق والعزيمة، ويلزم ذلك المتعلم والتشديد عليه، وأما التخفيف وعدم مراعاته العزيمة مع إرادة وجه الله وموضع صدق النية والإخلاص بنهوض السر والاتجاه إلى الله وحده دون سواه فذاك رخصة للعوام، على قدر طاقتهم تيسيرًا لهم، فالعزيمة للخواص والرخصة للعوام، لأننا إذا شددنا على العوام حرمناهم من فضل الذكر، وفى الحديث الشريف «يسروا ولا تعسروا».

أدب الذكر:

ذكر العارفون آدابًا كثيرة للذكر أهمها وأولاها بالرعاية(٨٦):

١ - الخشوع والتأدب، واستحضار معانى الصيغ، ومحاولة التأثر بها، وملاحظة مقاصدها وأغراضها.

٢ - خفض الصوت ما أمكن ذلك مع اليقظة والهمة الكاملة حتى لا يشوش على غيره.

وقد أشارت الآية الكريمة إلى هذه الآداب فقال تعالى: ﴿**واذكر ربك فى نفسك تضرعًا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين**﴾(٨٧).

---

(٨٣) مفتاح الفلاح لابن عطاء الله السكندرى ص ٣.

(٨٤) المرجع السابق ص ٢٨.

(٨٥) هناك صيغ: استعملها أصحاب الطرق ذكرت بعضها عند الحديث عن تراثهم.

(٨٦) أثنى من أتباع الطريق ملاحظة ذلك ملاحظة جيدة.

(٨٧) الآية ٢٠٥ من سورة الأعراف.

٣ – موافقة الجماعة إن كان الذكر مع جماعة، فلا يتقدم عليهم، ولا يتأخر عنهم، ولا يبنى على قراءتهم، بل إن حضر وقد بدأوا، ابتدأ معهم من أول صيغة، ثم قضى ما فاته بعد انتهائه، وإن تأخر عنهم فى أثناء القراءة، قرأ ما فاته وأدركهم، ولا يبنى على قراءتهم أصلاً، لئلاَّ يكون بذلك قد حرف القراءة، وغيرّ الصيغ وذلك حرام اتفاقًا.

٤ – النظافة فى الثوب والمكان، ومراعاة الأماكن المحرَّمة والأوقات المناسبة.

٥ – الانصراف فى خشوع وأدب، مع اجتناب اللغط واللغو اللذين يذهبان بفائدة الذكر وأثره.

أما الإمام الشعرانى فقد لخص فى كتابه الأنوار القدسية آداب الذكر(٨٨) قال: إن الأشياخ عددوا للذكر ألف أدب ثم قالوا: ويجمع هذه الآداب كلها عشرون أدبًا للذكر، من لم يتحقق بها فبعيد عليه الفتح، خمسة منها سابقة على الذكر، واثنا عشر حالاً للذكر، وثلاثة بعد الفراغ من الذكر.

فأما الخمسة السابقة فأولها: التوبة النصوح.. الثانى: الغسل أو الوضوء كلما أراد الذكر، الثالث: السكون والسكوت ليحصل له الصدق فى الذكر، وذلك أن يشغل قلبه بالله، الله، الله بالفكر دون اللفظ، حتى لا يبقى خاطر مع الله، ثم يوافق اللسان القلب، يقول: (لا إله إلا الله) «يفعل ذلك كلما أراد الذكر.. الرابع: أن يستمد عند شروعه فى الذكر بهمة شيخه بأن يشخصه بين عينيه ويستمد من همته ليكون رفيقه فى السير.

الخامس: أن يرى استمداده من شيخه هو استمداده حقيقة من رسول الله ﷺ لأنه واسطة بينه وبينه.

أما الآداب الاثنا عشر التى ينبغى على الذاكر اتباعها حال الذكر فنختار منها أهم هذه الآداب.

الأول: الجلوس على مكان طاهر.

الثانى: أن يضع راحتيه على فخذه، واستحبوا جلوسه للقبلة إن كان يذكر وحده، وإن كانوا جماعة تحلقوا.

الثالث: تطييب مجلس الذكر بالرائحة الطيبة.

الرابع: يغمض العينين، وذلك أن الذاكر إذا أغمض عينيه تسد عليه طرق الحواس الظاهرة شيئًا فشيئًا، وسدها يكون سببًا لفتح حواس القلب.

الخامس: أن يتخيل الشخص شيخه بين عينيه ما دام ذاكرًا، وهذا عندهم من آكد الآداب، لأن المريد يترقى منه إلى الأدب مع الله والمراقبة له.

السادس: أن يختار من صيغ الذكر لفظة (لا إله إلا الله)، فإن لها أثرًا عظيمًا عند القوم لا يوجد فى – غيرها من سائر الأذكار، فإن فنيت شهواته وأهويته كلها فحينئذ يصلح أن يذكر الله تعالى بلفظ

(٨٨) الأنوار القدسية للشعرانى ص ٣٦ وما بعدها بتصرف محدود.

الجلالة فقط، من غير نفى، وما دام يشهد شيئًا من الأكوان فَذِكْر الله تعالى بالنفى والإثبات واجب عليه فى اصطلاحهم.

السابع: تفرغ القلوب من كل موجود حال الذكر سوى الله يقول: لا إله إلا الله: فإن الحق تعالى غيور لا يحب أن يرى فى قلب الذاكر غيره، ولولا أن للشيخ مدخلاً عظيمًا فى تأديب المريد، ما ساغ للمريد أن يتخيل شخصه بين عينيه لا فى قلبه، وإنما شرطوا نفى كل موجود من الكون ليتمكن له تأثير قول: لا إله إلا الله بالقلب، ثم يسرى المعنى إلى سائر الجسد، وأجمعوا على أنه يجب على المريد أن يذكر بقوة تامة بحيث لا يبقى منه متسع ويهتز من فوق رأسه إلى أصبع قدميه، وهى حالة يستدلون بها على أنه صاحب همة.

وأما الثلاثة الآداب التى بعد الذكر فهى:

١ - أن يسكت بعد سكون وتخشع، ويحضر مع قلبه مترقبًا لوارد الذكر.

٢ - أن يذم نفسه مرارًا بقدر ثلاثة أنفاس إلى سبعة أنفاس وأكثر حتى يدور الورد فى جميع عوامله فتنور بصيرته، وتقطع عنه خواطر النفس والشيطان وتكشف عنه الحجب، وهذا كالمجمع على وجوبه عندهم.

٣ - منع شربه الماء البارد عقب الذكر، فإن الذكر يورث حرقة وهيجانًا وشوقًا إلى المذكور الذى هو المطلوب الأعظم من الذاكر، وشرب الماء يطفئ تلك الحرارة.

هذه هى أهم آداب الذكر، وهناك بعض الملاحظات التى نلمسها فى أذكار الطرق الصوفية فمثلاً (يلاحظ أن لكل طريقة نوعًا من الأذكار والأوراد والأحزاب يرددها المريدون سواء فى مجالسهم أو فيما بينهم وبين أنفسهم)[٨٩].

وسنتحدث عن الأحزاب والأوراد فى مكانها المناسب من هذا الكتاب إن شاء الله.

الإمام ابن تيمية ومجالس الذكر

أنكر الإمام ابن تيمية مجالس الذكر فى جماعة، وعدها بدعة وقال: إنه لم يكن على عهد الرسول ﷺ أو صحابته مجالس ذكر. وقال إن كان هناك مجالس ذكر حقيقية فهى مجالس تعليم القرآن، ومدارسة الحديث والفقه والإرشاد والتوجيه لما فيه صالح المجتمع فى الدنيا والآخرة.

وللرد على العلامة الجليل الإمام ابن تيمية رحمه الله نقول: إن النبى ﷺ والمسلمين فى صدر الإسلام كانوا مشغولين بتأسيس الدولة الإسلامية، ونشر دين الله فى كل مكان، ومحاربة الكفار والمرتدين، فلم يكن هناك وقت عندهم لمجالس الذكر فى جماعة، فلما تم نصر الله، وانتشر الإسلام شرقًا وغربًا، وبدأ تأثير الحضارات الأخرى فى الثقافة العربية، واشتغل فريق من المسلمين بالثروة والجاه وحب الزينة

(٨٩) الحياة الروحية فى الإسلام للمرحوم الأستاذ الدكتور مصطفى حلمى ص ٥٦.

اعتزل فريق آخر زينة الحياة الدنيا، واتجه إلى زهدها مثل الحسن البصرى، وكان يدرس للناس فى المسجد ويفقههم فى أمور دينهم ودنياهم وتطور الأمر وأصبح له مجلس ذكر، وهو يعد أول مؤسس لمجالس الذكر.

وقد يكون الإمام العظيم ابن تيمية مجافيًا للحق فى اعتباره مجالس الذكر بدعة، فها هو ذا رسولنا الكريم ﷺ يقول: «ما من قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده». وقال أيضًا ﷺ: «يقول الرب يوم القيامة سيعلم الجمع من أهل الكرم: فقال: ومن أهل الكرم يا رسول الله، قال: أهل مجالس الذكر فى المساجد»(٩٠).

وأخرج الترمذى ومسعد وابن أبى شيبة وأحمد والنسائى وابن حبان عن معاوية رضى الله عنه: أن النبى ﷺ، خرج على حلقة من أصحابه، فقال ما أجلسكم؟ قالوا جلسنا نذكر الله ونحمده فقال: أتانى جبريل فأخبرنى أن الله يباهى بكم الملائكة.

من ذلك كله نستطيع أن نقول بوضوح: إن مجالس الذكر ليست بدعة أبدًا كما قرر الإمام ابن تيمية رضى الله عنه، وإنما هى ارتفاع بالإنسان فوق الماديات وسمو لروحه، وجلاء لقلبه، وطهر لنفسه.

وقد يكون مما حمل الإمام الفاضل ابن تيمية على إنكاره مجالس الذكر أنه وجد على أيامه تلك الحلقات الغريبة عن مجالس الذكر الحقيقى التى ابتدعها بعض المنتسبين إلى الطريق ظلمًا، ويوجد مثله الكثير حتى يومنا هذا.

ويحذر الباحثون من حركات الذكر البهلوانية التى يصطنعها ويجيدها بعض مدعى التصوف، وتلك الأصوات العالية التى ترتفع من الأفواه ولا تتجاوز الحناجر إلى ما وراءها، إنما يراد بالذكر أن يكون المؤمن على صلة دائمة بالله فى عباداته وفى عمله، وفى خلوته، وحين يكون مع الناس. فهذا الذكر هو الذى يجعل المؤمن يستحى من ربه فلا يغفل عن مراقبته، ولا يجرؤ على معصيته، ولا يقصر فيما أوجب عليه، وهو فى حالاته كلها ممتلىء القلب بالخشوع لله والامتثال له والحياء منه(٩١).

إن ما أود أن أقوله حقيقة، إن طريقة الذكر أصبحت تسىء إلى التصوف والطرق الصوفية، بل فى رأيى أنها الآن الشرخ الواضح الذى أحدثه الأدعياء من المريدين والأتباع فى الطرق الصوفية فنحن نرى مثلا حلقات الذكر بالألحان والإيقاعات والدف والبندير والصياحات الغريبة التى شوهت ذكر الله تعالى، حتى أننا رأينا أن طريق الذكر تعنى الشكل الإيقاعى الذى يكون عليه إنشاد ذكر الله. وهو إيقاع جماعى للفظة الجلالة، و(لا إله إلا الله) أو (الله حى) ويتخللها إيقاعات وألحان أخرى لقصائد دينية.

كما رأينا حين دراسة طريقة الذكر فى الطرق الصوفية أن الطريقة قسمان: أحدهما يسمى الأرضية،

---

(٩٠) رواه الترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة وأبى سعيد.

(٩١) مجلة منبر الإسلام (عدد شعبان ١٣٨٦ هـ) ص ١١٢ مقالة الأستاذ الدكتور مصطفى زيد وذكرها الأستاذ الدكتور شلبى فى كتابه الحياة الاجتماعية فى الفكر الإسلامى ص ٢٠٥.

وهو أن تجعل أبياتا من الشعر ملحنة تلحينا موزونا ثم يقاس عليها تلحين (لا إله إلا الله)، أو أن يلحن الذكر وتقاس على تلحينه أبيات من الشعر، فينشد الرئيس لحن الأبيات من صيحات نغم الذكر، ويردد الذكر من سجاحات تلك النغم، أى قراءتها. والقسم الثانى أن يجعل اللحن فى الأبيات فقط وأن يحتفظ بأزمنة النغم حتى لا يخرج المنشد عن الإيقاع، ويستعمل فى هذه الطريقة آلات الإيقاع الدف والبندير والتصفيق.

وهكذا أصبحت طريقة ذكر الله تعالى.. إنشادًا على إيقاعات وألحان يهتز ويتمايل على دقاتها الأتباع والإخوان الأدعياء مما أساء للطرق الصوفية إساءة بالغة وأصبحت طريقة ذكر الطرق الصوفية ثغرة ينفذ منها أعداء التصوف.

إن الذكر بهذه الطريقة المنحرفة ليس ذكرًا لله تعالى، وإنما مجرد رقص وهز للأجساد والأرداف، يمثل انحرافًا خطيرًا عن الطريقة المثلى لرواد الطرق وأصحابها الأجلاء، الذين لم يأمروا أتباعهم قط بعمل هذه الحركات المستشنعة وإنما أمروهم بذكر الله ذكرًا سليمًا صحيحًا، وعلموهم آداب الذكر وألزموهم باتباعها، ولكن الدخلاء على الطريق شوهوا صورة الذكر الجميل، وأضافوا إليه وجرحوه... وأصبح الذكر الذى هو أصل زينة الطريق فرصة استغلها أعداء التصوف، والطرق الصوفية.

وإنها لدعوة صريحة خالصة لوجه الله تعالى لمريدى وأتباع الطرق الصوفية: ينبغى ألا يكون ذكر الله بهذا التشويه المشاهد والمعروف.

وإذا كنا حقيقة نحتاج إلى ثورة روحية تبدأ من عمق العمق، فإن المؤلف يناشد حوالى خمسة ملايين مصرى يمثلون أكبر حزب، وأكبر دائرة فى مصر أن يطهروا الطريق مما حسب عليه ومن هؤلاء الدخلاء عليه من المرتزقة والمنتفعين وهم أعداء الطريق بحق.

وبالطبع فإن الحديث عن الذكر يجرنا إلى الحديث عن السماع.

ثالثا - السماع:

يقصد بالسماع الغناء والموسيقى - وهى الضابط للإيقاع - وإنشاد الشعر والمنظومات، والغناء والرقص والتمايل وهى من أقسام السماع وبالطبع: إذا كان السماع بهدف اللعب بالغرائز والشهوات فهو منهى عنه، وخاصة رأى أئمة المسلمين المجتهدين هو التحرز من السماع والإقلال منه خوفا من أن يؤدى إلى شرور النفس وفسادها، أما الإباحة، فللمستمع الذى تتوفر فيه الرغبة فى الطاعات وتذكره بما أعده الله لعباده المتقين من الدرجات فى الجنة(٩٢).

فأبو حنيفة النعمان رضى الله عنه يجعل السماع من الذنوب، وكذلك صح عن مالك رضى الله عنه إنكار السماع وكراهته، والشافعى رضى الله عنه يجعله للعوام مكروها، ولا يلحقه بالمحرمات، بل كان يجعله مما يسقط المروءة، والإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه ينهى عنه من حيث الورع.

---

(٩٢) أبو الحسن الشاذلى: للأستاذ على سالم عماد جـ ٢ ص ١٥٢.

ويوضح هذه الآراء الشيخ عبد القادر الأربلى صاحب كتاب حجة الذاكرين ورد المنكرين[٩٣] السماع عند (الشافعية): لهو مكروه، ويشبه الباطل، وترد شهادة محله، (وعند المالكية): يجب على ولاة الأمور زجرهم ومنعهم وإخراجهم من المساجد إن كانوا يفعلون فى المسجد، وعند الحنابلة لا يصلى خلفهم ولا تقبل شهادتهم، وعقد النكاح على يدهم فاسد، ويقولون: إن سعيد بن المسيب مشى ودار وسقط فى حال الذكر فى عقد رسول الله ﷺ فقال ﷺ: اذبحوه، فقصدوا ذلك ثم قال: لا تذبحوه ولكن ألقوا عليه بهذا العمود لا أبرح من مكانى هذا حتى أجدد إيمانه، ويقولون: أول من أحدث الرقص (السامرى) حين اتخذ لهم العجل هكذا قال الطرطوشى، ويقيسون ويشبهون دورانهم وفعلهم على فعل المشركين ودورانهم فى أيام كفايتهم، ويستدلون بحديث من تشبه بقوم فهو منهم.

وقد ذكرنا من قبل رأى إمام الحنفية وقلنا: إن أبا حنيفة النعمان رضى الله عنه لم ينكر السماع فقط بل جعله من الذنوب.

ويقول الإمام العز بن عبد السلام وهو أحد فقهاء القرن السابع الهجرى: إن السماع ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

١ - منها ما هو حرام محض: وهو لأكثر الناس من الشباب. ومن غلبت عليهم شهواتهم ولذاتهم، وملكهم حب الدنيا، وتكدرت بواطنهم، وفسدت كل مقاصدهم، فلا يحرك السماع منهم إلا ما هو الغالب عليهم، وعلى قلوبهم من الصفات الذميمة سيما فى زماننا هذا[٩٤]، وتكدر أحوالنا، وفساد أعمالنا.

٢ - ومنها ما هو مباح لمن لاحظ له منه إلا التلذذ بالصوت الحسن واستدعاء السرور والفرح، أو يتذكر غائبا أو ميتا فيثير حزنه فيروح بما سمعه.

ومنها ما هو مندوب: وهو لمن غلب عليه حب الله تعالى والشوق إليه، فلا يحرك السماع منه إلا الصفات المحمودة، وتضاعف الشوق إلى الله سبحانه وتعالى[٩٥]، وبعد ذلك يقول الإمام العز بن عبد السلام: ومجمل القول فى ذلك أن من سمع فظهرت عليه صفات نفسه، وتذكر به حظوظ دنياه، فاستتار بسماعه وسواس هواه، فالسماع عليه حرام محض، ومن سمع فظهر له ذكر ربه وخوفه من ذنبه وذكر آخرته، فأتيح له ذلك الذكر شوقًا إلى الله تعالى وحبًّا فيه ورجاءً لوعده وخوفًا من وعيده فسماعه ذكر من الأذكار مكتوب فى صحائف الأبرار[٩٦].

وقد كتب الشيخ عبد الغنى النابلسى الحنفى أحد فقهاء القرن التاسع الهجرى رسالة عن الموسيقى والغناء التى استدل بها القائلون بالتحريم - على فرض صحتها - مقيدة بذكر الملاهى، وبذكر الخمر، والقينات والفسوق والفجور، ولا يكاد حديث يخلو من ذلك، وعليه كان الحكم عنده فى سماع الأصوات والآلات المطربة أنه إذا اقترن بشىء من المحرمات، أو اتخذ وسيلة للمحرمات، أو أوقع فى

(٩٣) حجة الذاكرين ورد المنكرين للشيخ عبد القادر الأربلى - طبعة جريدة الإسكندرية سنة ١٢٩٩. ص ٥.

(٩٤) القرن السابع الهجرى: وهو شبيه بما يحدث الآن فى معظم ما نسمعه.

(٩٥، ٩٦) كتاب حل الرمز ومفاتيح الكنوز أو «بين الشريعة والحقيقة» للعز بن عبد السلام ص ٢٨، ٢٩ على التوالى.

المحرمات، كان حرامًا. وأنه إذا سلم من كل ذلك كان مباحا فى حضوره وسماعه وتعلمه، وقد نقل عن النبى ﷺ، ثم عن كثير من الصحابة والتابعين والأئمة والفقهاء أنهم كانوا يسمعون ويحضرون مجالس السماع البريئة من المجون والمحرمات(٩٧).

والمرحوم الشيخ محمود شلتوت ذكر هذا التلخيص لتلك الرسالة وعلق عليه بقوله: إن هذا يوافق تماما فى المغزى والنتيجة الأصل الذى قررناه فى موقف الشريعة بالنسبة للغناء والموسيقى، وعلى هذا فسماع الآلات أو الأصوات الجميلة لا يمكن أن يحرم باعتباره صوت آلة أو صوت إنسان. وإنما يحرم إذا استعين به على محرم أو اتخذ وسيلة إلى محرم أو ألهى عن واجب(٩٨).

ويقول صاحب كتاب التمكين فى شرح منازل السائرين: «وحكم السماع شرعا: يتبع ما تعلق به، إن خيرا فخيرا وإن شرا فشرا، فإن كان المقصود بالسماع حب الله تعالى والتبتل إليه والازدياد من الإيمان به والتحبب إليه. فأنعم به من سماع!، وإن كان السماع مثيرًا للهوى موقظًا لغرائز النفس. ويراد به غير المقصود منه فهو فى مثل هذا المقام فتنة ومحرم»(٩٩).

وهذا هو رأينا الذى نقول به. فإذا كان هدف السماع مجرد اللهو والتسلية واشتغال النفس، وانبساطها وسرورها، وفسادها وتقوية الغرائز وامتدادها والتذاذها، فالسماع مكروه محرم، أما إذا كان السماع بعيدًا عن المجون بريئًا من اللهو يرجو منه صاحبه سمو روحه، وارتفاع نفسه بهمته فهو ليس مكروها.

وإذا استعرضنا آراء الصوفية فى السماع فسنجد أن الصوفية كانوا يفتون فيه حسب مفاهيمهم ومشاربهم فى الورع، فمنهم من عده بدعة ضارة وتحريضا على الرذيلة فقال بإنكاره. ومنهم من جعل الحكم عليه بحسب ظروفه ومناسباته وأثره، فإن كان الأثر محمودا أجازه وإن كان الأثر سيئا أنكره ونهى عنه، ومنهم. من جعله مندوبًا وقال بإطلاقه(١٠٠).

ورأى الإمام القشيرى أن السماع مباح فى الجملة إذا لم يقصد إلى محظور أو مذموم أو ينخرط فى سلك اللهو.

ويقول الطوسى: «وأهم ما امتاز به الصوفية، هو التحرز فى السماع وهم يكرهون السماع إذا تطرق الغرض منه إلى الفساد والمخالفة واللهو وترك الحدود»(١٠١).

وقد سئل بعض الصوفية عن السماع منهم أبو سليمان الدارانى فقال: وكل قلب يريد الصوت

---

(٩٧) الحياة الاجتماعية فى التفكير الإسلامى: للاستاذ الدكتور أحمد شلبى ص ١٧٥.

(٩٨) الفتاوى: للمغفور له الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت ص ٤١٣، ٤١٤، وذكره الاستاذ الدكتور أحمد شلبى فى كتابه: الحياة الاجتماعية فى التفكير الإسلامى ص ١٧٥.

(٩٩) التمكين فى شرح منازل السائرين للهروى ص ٥٠.

(١٠٠) كتاب أبو الحسن الشاذلى: لعلى سالم عمار. الجزء الثانى ص ١٥٢.

(١٠١) اللمع: للطوسى ص ٢٧٣، ٢٧٦.

الحسن، فهو ضعيف يداوى، كما يداوى الصبى إذا أريد أن ينام، ثم قال أبو سليمان: إن الصوت لا يدخل فى القلب شيئا. وإنما يحرك من القلب ما فيه[١٠٢].

وسئل ذو النون عن السماع فقال: «وارد حق يوصل القلوب إلى الحق. فمن أصغى إليه بحق تحقق. ومن أصغى إليه بنفسه تزندق»[١٠٣].

ومن الصوفية المعارضين للسماع أبو الحارث الأولاسى، يقول الأولاسى:

«رأيت إبليس - لعنه الله- فى المنام على بعض البلد وأنا على سطح، وعلى يمينه جماعة وعلى يساره جماعة وعليهم ثياب نظاف، فقال لطائفة منهم: قولوا.. فقالوا، وغنوا، فاستفزعنى طيبه أى طيب قوله حتى هممت أن اطرح نفسى من السطح، ثم قال: ارقصوا فرقصوا أطيب ما يكون، ثم قال لى: أيا أبا الحارث. ما أصبت شيئا أدخل به عليكم إلا هذا»[١٠٤].

وقيل رأى بعضهم النبى ﷺ فى المنام فقال: الغلط فى هذا أكبر، يعنى به السماع[١٠٥].

ومن الصوفية القائلين بالسماع الشبلى الذى قال حين سئل عن السماع: السماع ظاهره فتنة، وباطنه عبرة، فمن عرف الإشارة حل له استماع العبرة. وإلا فقد استدعى الفتنة، وتعرض للبلية[١٠٦].

وقال بعضهم: السماع لطيف غذاء الأرواح لأهل المعرفة، لأنه وصف يدق عن سائر الأعمال، ويدرك برقة الطبع لرقته، ويدرك بصفاء السر لصفائه ولطفه عند أهله[١٠٧].

وعن الكارهين للسماع وغير القائلين به يحدثنا الإمام الطوسى فيقول فى جمال زائد طائفة كرهت ذلك وزعمت أن الذى يتعرض لاستماع الرباعيات لا يخلو من أحد وجهين: إما هم قوم متلهون من أهل الدعاية والفتنة، أو هم قوم وصلوا إلى الأحوال الشريفة وعانقوا المقامات الرضية، وأماتوا نفوسهم بالرياضات والمجاهدات وطرحوا الدنيا وراء ظهورهم، وانقطعوا لله عز وجل فى جميع معانيهم قالوا: ولسنا نحن من هؤلاء ولا من هؤلاء فلا معنى لانشغالنا بذلك، وترك ذلك أولى بنا. والاشتغال بالطاعات وأداء المفترضات واجتناب المحرمات يشغلنا عن ذلك[١٠٨].

ثم يتابع الطوسى حديثه فيقول: وقوم كرهوا ذلك للمريدين القاصدين والتائبين لعظم ما فيه من الخطر، إن استلذوا ذلك وتابعوا حظوظهم، فتنحل عند ذلك عقودهم، وتنفسخ عزيمتهم، ويركنوا إلى شهواتهم، ويتعرضوا للفتنة، ويقعوا فى البلبلة.. وكرهت طائفة أخرى ذلك من جهة أن العامة لا تعرف

---

(١٠٢) الرسالة القشيرية: الجزء الثانى ص ٦٥٦.

(١٠٣) اللمع: للطوسى ص ٣٤٢.

(١٠٤، ١٠٥) الرسالة القشيرية: جـ ٢ ص ٦٥٨.

(١٠٦) اللمع للطوسى: ص ٣٤٢ و٣٥٢ و ٣٧٢ و ٣٧٣، على التوالى.

(١٠٧، ١٠٨) اللمع للطوسى: ص ٣٤٢ و ٣٥٢ و ٣٧٢ و ٣٧٣، على التوالى.

مقاصد القوم العامة فيما يسمعون، فربما غلطوا فى مقاصدهم وزلقوا، فكرهوا ذلك شفقة على العامة، وصيانة للخاصة، وغيرة على الوقت الذى إذا فات لا يدرك. ويقول أيضا: وطائفة أخرى من أهل المعرفة والكمال كرهوا ذلك، لأن أحوالهم مستقيمة، وأوقاتهم معمورة، وأذكارهم صافية، وأسرارهم طاهرة، وقلوبهم حاضرة، وهمومهم مجتمعة، لم يخطر ببالهم خاطر ولا يجرى فى أفكارهم عارض إلا وهم مشرفون عليه يعلمون من أين مورده وإلى أين مصدره.. فهم مع الله تعالى ببواطنهم وإن كانوا مع الخلق بظواهرهم(١٠٩).

وللإمام الغزالى رأى قيم فى السماع حيث يقول: إن السماع قد يكون حرامًا محضًا. وقد يكون مباحًا. وقد يكون مكروهًا. وقد يكون مستحبًّا. أما الحرام: فهو لأكثر الناس من الشبان، ومن غلبت عليهم شهوة الدنيا، فلا يحرك السماع منهم إلا ما هو الغالب على قلوبهم من الصفات المذمومة... وأما المكروه: فهو لمن لا ينزله على صورة المخلوقين، ولكنه يتخذه عادةً له فى أكثر الأوقات على سبيل اللهو، وأما المباح فهو لمن لاحظ له منه إلا التلذذ بالصوت الحسن، وأما المستحب فهو لمن غلب عليه حب الله تعالى، ولم يحرك السماع منه إلا الصفات المحمودة(١١٠).

وقد وضع الإمام الغزالى آدابًا خمسةً للسماع(١١١).

الأدب الأول: مراعاة الزمان والمكان والإخوان. قال الجنيد: السماع يحتاج إلى ثلاثة أشياء وإلا فلا تسمع. الزمان. والمكان. والاخوان. ومعناه أن الاشتغال به فى وقت حضور الطعام، أو صارف من الصوارف مع اضطراب القلب لا فائدة فيه، فهذا معنى مراعاة الزمان، فيراعى حالة فراغ القلب له، وأما المكان: فقد يكون شارعًا مطروقًا، أو موضوعا كريه الصورة، أو فيه سبب يشغل القلب فيجتنب ذلك، وأما الإخوان فسببه أنه إذا حضر غير الجنس من منكر السماع، متزهد الظاهر، مفلس من لطائف القلوب، كان مستقلا فى المجلس واشتغل القلب به، وكذلك إذا حضر متكبر من أهل الدنيا يحتاج إلى مراقبته وإلى مراعاته، أو متكلف متواجد من أهل التصوف يرائى بالوجد والرقص، وتمزيق الثياب فكل ذلك مشوش فترك السماع عند فقد هذه الشروط أولى.

الأدب الثانى: هو نظر الحاضرين أن الشيخ إذا كان حوله مريدون يضرهم السماع فلا ينبغى أن يسمع فى حضورهم، فإن سمع فليشغلهم بشغل آخر، والمريد الذى يستضر بالسماع أحد ثلاثة، أقلهم درجة: هو الذى لم يدرك من الطريق إلا الأعمال الظاهرة، ولم يسكن له ذوق السماع فلا ينبغى أن يسمع فى حضورهم، فإن سمع فليشغلهم بشغل آخر، فاشتغاله بالسماع اشتغال بما لا يعنيه، فإنه ليس من أهل اللهو فيلهو، ولا من أهل الذوق فيتنعم بذوق السماع، فليشتغل بذكر الله أو خدمته، وإلا فهو تضييع لزمانه.

---

(١٠٩) اللمع للطوسى ص ٣٧٣، ٣٧٤.

(١١٠) إحياء علوم الدين للإمام الغزالى الجزء السادس طبعة لجنة نشر الثقافة الإسلامية بجمعية الجهاد الإسلامى سنة ١٣٥٦ هـ ص ١٩٩.

(١١١) المرجع السابق من ص ١٩٣ إلى ١٩٩ باختصار.

الثانى: هو الذى له ذوق السماع ولكن فيه بقية من الحظوظ والالتفات إلى الشهوات والصفات البشرية فربما يهيج السماع منه داعية اللهو والشهوة فيقطع عليه طريقه ويصده عن الاستكمال.

الثالث: أن يكون قد انكسرت شهوته وانفتحت بصيرته واستولى على قلبه حب الله تعالى، ولكنه لم يحكم ظاهر العلم، ولم يعرف أسماء الله تعالى وصفاته وما يجوز عليه وما يستحيل، فإذا فتح باب السماع ونزل المسموع فى حق الله تعالى على ما يجوز وما لا يجوز، فيكون ضرره من ذلك الخاطر الذى هو كفر أعظم من نفع السماع.

قال سهل رحمة الله عليه: كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل، فلا يصلح السماع لمثل هذا، ولا لمن قلبه بعد ملوث بحب الدنيا وحب المحمدة والثناء، ولا لمن يسمع لأجل التلذذ والاستطابة بالطبع، فيصير ذلك عادة له ويشغله ذلك عن عباداته ومراعاة قلبه، ويقطع عليه طريقه، فالسماع مزلة قدم يجب حفظ الضعفاء منه.

الأدب الثالث: أن يكون مصغيًا إلى ما يقول القائل، حاضر القلب، قليل الالتفات إلى الجوانب متحرزًا عن النظر إلى وجوه المستحقين، وما يظهر عليهم من أحوال الوجد، مشتغلاً بنفسه ومراعاة قلبه، ومراقبة ما يفتح الله تعالى من رحمته فى سره، متحفظًا عن حركة تشوش على قلوب أصحابه بل يكون ساكن الظاهر هادئ الأطراف، متحفظا عن التنحنح والتثاؤب، ويجلس مطرقا رأسه، كجلوسه فى فكر مستغرق بقلبه، متماسكا عن التصفيق والرقص، وسائر الحركات على وجه التصنع والتكلف والمراءاة ساكتًا عن النطق فى أثناء القول بكل ما عنه بد، فإن غلبه الوجد وحركه بغير اختيار فهو فيه معذور غير ملوم، ومهما رجع إليه الاختيار فليعد إلى هدوئه وسكونه، ولا ينبغى أن يستديمه حياء من أن يقال: انقطع وجده على القرب، ولا أن يتواجد خوفًا من أن يقال هو قاسى القلب، عديم الصفاء والرقة.

الأدب الرابع: ألاَّ يقوم ولا يرفع صوته بالبكاء وهو يقدر على ضبط نفسه، ولكن إن رقص أو تباكى فهو مباح إذا لم يقصد به المراءاة.

والأدب الخامس: موافقة القوم فى القيام إذا قام واحد منهم من وجد صادق من غير رياء وتكلف، أو قام باختيار من غير إظهار وجد، وقامت له الجماعة، فلابد من الموافقة، فذلك من آداب الصحبة، فالموافقة فى هذه الأمور من الصحبة والعشرة، إذ المخالفة موحشة ولكل قوم رسم، ولابد من مخالفة الناس بأخلاقهم، كما ورد فى الخبر لاسيما إذا كانت أخلاقا فيها حسن العشرة، والمجاملة وتطييب القلب بالمساعدة، وقول القائل: إن ذلك بدعة لم يكن فى الصحابة، فليس كل ما يحكم بإباحته منقولا عن الصحابة رضى الله عنهم، وإنما المحذور ارتكاب بدعة تعارض سنة مأثورة، ولم ينقل النهى عن شىء من هذا.

ولكن من الملاحظ أنه بالرغم من أن بعض كبار الصوفية - كالإمام الغزالى - قد وضعوا الآداب للسماع إلا أن بعض الأتباع حطموا كل قيد حول السماع واستزادوا منه، واهتموا به اهتماما كبيرا، بل نراهم قد نبغوا فى هذا الفن ووضعوا له الأصول والقواعد.

ولقد رأينا بعد ذلك أتباع الطرق الصوفية قد انسلخوا تماما عن أصول الطريق الصحيح وابتدعوا وتأولوا.

وسنكشف فى هذا الكتاب إن شاء الله كشفًا هامًا، وهو أن بعض أصحاب الطرق مثل: الشاذلى، والرفاعى، والدسوقى، قد أنكر السماع لأتباعه، ومع ذلك فإن المريدين والإخوان نسبوا إليهم إباحة السماع كذبًا، ثم إن بعض هؤلاء الأتباع أساءوا للطريقة بسماعهم المزرى، بتمايله، ورقصه وتشنجه العنيف واهتزازه الغريب المشوه.

والحق أنا نلمس طرقًا كثيرةً تنشد الأدوار الموسيقية بمذاهبها المختلفة، فى مجالسها الصوفية حتى أنه أصبح للتغنى فى مجالس الصوفية طريقة خاصة وضعها بعضهم حيث يقول[١١٢]: إن الصوفية درجوا منذ القديم على أن يبدءوا مجالس الذكر: (لا إله إلا الله)، وتعرف عندهم بالأرضية، ويأخذ (الرسيم) الذى هو رئيس المجلس فى التدرج بالذاكرين أثناءها من الراست (الرصد) إلى الدوكه إلى السيكا، إلى الجهركاه، إلى الحجازى، ثم الرهاوى، فالكردى، فالبياتى فالصبا[١١٣]، ومن هنا تبدو مقدرة الرئيس فى نقل الذاكرين من نغمة إلى نغمة، كما تبدو مقدرة المنشدين فى متابعتهم للأنغام والإنشاد، والغالب فى الإنشاد على الأرضية أن يكون من كلام الصوفية كقولهم:

إلهى توسلنا بجاه محمد نبيك وهو السيد المتواضع
أنلنا مع الأحباب رؤيتك التى إليها قلوب الأولياء تسارع

إلى آخر القصيدة، ثم ينفرد رئيس المنشدين بعد الوصول إلى نغمة الرصد، أو إلى النغمة التى ينتهى عندها إنشاد القصيدة بالاستغاثة أغثنا أدركنا يا رسول الله ثم يقول الموال من نفس النغمة، فالأبيات التى سينشدها عند قيام المجلس من نفس النغمة أيضا ينشدها على الأرض مقطعة، وعند قيام الذاكرين يكرر الأبيات بالطريقة المألوفة، ثم ينفرد بعد ذلك بالمقطعات والقصائد والرقائق وما إليها من كلام الصوفية، وقد يستبيح بعضهم أن ينشد الأدوار الموسيقية بمذاهبها وورودها المعروفة على مجالس الذكر.

وقد أصبحت حلقات ذكر الله تعالى سماعًا موسيقيًا وإيقاعات رتيبة، فوجدنا بعض أبناء الطرق الصوفية، قد ولعوا بالنقر والضرب والعزف والغناء، حتى رأيناهم قد لعبوا دورا كبيرًا لمسناه بوضوح فى تاريخ الحركة الفنية فى مصر.

وهكذا ابتعدت الطرق الصوفية عن أصولها الحقيقية التى نادى بها ورسمها أصحابها الأجلاء لأتباعهم.

ولهذا فإننى أطالب وأوصى رجال المجلس الأعلى للطرق الصوفية، أن يعملوا على تنبيه الطرق

---

(١١٢) مقالة عن السماع للمرحوم التفتازانى نشرها بمجلة المعرفة عدد يونية ١٩٣١ م.

(١١٣) كل هذه الألفاظ مصطلحات موسيقية ومن هنا نعرف كيف امتلأت مجالس الصوفية بالايقاعات والنغمات الموسيقية المختلفة.

خصوصًا ما نراه فى بعض (الحضرات) من صور غريبة عن الإسلام من هز وغناء وموسيقى وصياح وهرج رهيب.

وما نراه من صور السماع السيىء داخل الموالد فذاك أفظع وأنكى، فما يحدث فى الموالد شيء عجيب.

رابعا - الموالد:

من أهم ما ترتب على قيام الطرق الصوفية فى مصر ظهور وانتشار تلك الموالد المتعددة للاحتفال بذكرى شيوخ الطرق الصوفية وأولياء الله الصالحين:

وإذا كانت الموالد تقام لإحياء ذكرى رجالات الإسلام وأعلامه، فالمفروض أن تكون مناسبات تدعيم وتجديد للقيم الإسلامية والروحية، لا أن تكون بهذه الصورة المشوهة التى تصحب وتستصحب إقامة الموالد، وتعد ورقةً رابحةً فى يد أعداء الطرق الصوفية، وليس العيب فى إقامة المولد، بل هو عيب التنظيم والإعداد.

وواجب مشايخ الطرق الصوفية فى مصر أن يعملوا على تطهير تلك الموالد مما يشوبها، أو شابها من هؤلاء الأدعياء، الذين شوهوا صورة الطريق الناصعة لدرجة أن بعض أهل مصر يتصور تصورًا خاطئًا أن التصوف فى الطرق الصوفية يعنى، موالد وخرق، وعمامات حمراء، أو خضراء، أو سوداء أو شعور طويلة وحركات حواة وقبض على الثعابين، وطبول ورقص وغناء غريب.

وحقيقة أن معظم التجمعات الكبيرة تحوى مثل هذه الظواهر، إلا أننا نوصى بأن يعمل المسئولون بوزارة الأوقاف والأزهر الشريف والمجلس الأعلى للطرق الصوفية، على ترشيد هذه الموالد وتنظيمها بحيث تكون بحق إحياءً لذكرى رجال الإسلام وأقطابه وتدعيمًا للقيم الروحية السليمة.

ومن العجيب حقا أن ما يحدث الآن فى الموالد، هو ما كان يحدث فى الموالد القديمة خصوصا القرنين العاشر والحادى عشر الهجريين(١١٤).

وقد يكون أيضا مما ساعد على تعدد الموالد وانتشارها، تلك الأضرحة الكثيرة المنتشرة فى كل مكان فى أرض مصر.

وأود أن أشير هنا إلى ناحية أخرى وهى: كما أن أتباع الطرق الصوفية تعودوا إقامة القبور الفخمة،

---

(١١٤) مثلاها هو ذا الجبرتى يصف ما كان يحدث فى مولد العفيفى «ينصبون خياماً كثيرة وصواوين ومطابخ وقهاوى، ويجتمع العالم الأكبر من أخلاط الناس، وخواصهم، وعوامهم، وفلاحى الأرياف، وأرباب الملاهى، والملاعب، والغوازى، والبغايا، والقرادين، والحواة، فيملئون الصحراء والبساتين، فيطئون القبور ويبولون، ويتغوطون، ويزنون، ويلوطون، ويلعبون، ويرقصون، ويضربون بالطبول والزمور، ليلاً ونهاراً، ويجتمع لذلك الفقهاء العلماء، ويقتدى بهم الأكابر من الأمراء والتجار والعامة من غير إنكار، بل يعتقدون أن ذلك قربة وعبادة، ولو لم يكن ذلك لأنكره العلماء، فضلاً عن كونهم يفعلونه، فالله يتولى هدانا أجمعين». تاريخ الجبراتى طبعة ١٣٢٢هـ ص ٢٢٥ جـ ١.

لمشايخهم الكبار، والاحتفال بموالدهم، فإن الشيعة أيضا يشاركونهم فى ذلك، وذلك لا يعنى بالطبع أننى أوافق الدكتور الشيبى حين يرى، أن مسألة زيارة قبور الأولياء والاحتفال بموالدهم ظاهرةً شيعية الأصل حيث يقول: «إن تقديس القبور وزيارتها كانا وقفًا على الشيعة الذين كانوا يقصدون قبر الحسين من قديم مما هو معروف عند الشيعة حتى الآن»[١١٥] وإنما أقول: إنها ظاهرة مشتركة بينهما دون أن أقول إن أحدهما أخذ هذه الظاهرة عن الآخر.

وأخيرا.. لعل مما ساعد على الاعتقاد فى الموالد وانتشارها تلك الكتابات الغريبة، التى كتبها مروجو الكرامات، أمثال الشيخ يوسف النبهانى صاحب كتاب كرامات الأولياء، الذى يقول: إن من كرامات سيدى أحمد البدوى، ما ذكره سيدى الشيخ محمد الشناوى رضى الله عنه قال: إن شخصا أنكر حضور مولده (مولد البدوى) فسلب الإيمان، فلم يكن فيه شعرة تحن إلى دين الإسلام، فاستغاث بسيدى أحمد رضى الله عنه، فقال بشرط أن لا تقول (يقصد ألا تنكر القول بالموالد)، فقال: نعم، فرد عليه ثوب إيمانه، ثم قال له: وماذا تنكر علينا؟ قال: اختلاط الرجال والنساء، فقال له سيدى أحمد رضى الله عنه: ذلك واقع فى الطواف، ولم يمنع أحد منه، ثم قال: وعزة ربى ما عصى أحد فى مولدى إلا وتاب وحسنت توبته، وإذا كنت أرعى الوحوش والسمك فى البحار، وأحميهم من بعضهم، أفيعجزنى الله عز وجل عن حماية من يحضر مولدى؟[١١٦].

وهذه الحكايات الغريبة، جعلت الأتباع وغيرهم يتسابقون إلى حضور مولد هؤلاء المشايخ أصحاب الكرامات الكبيرة.. وهذا يجعلنا نتوقف ويجرنا لإلقاء الضوء على الكرامة:

الكرامة.. وأقسامها:

الكرامة هى الأمر الخارق لما تعود عليه البشر أن يجدوه مقبولاً عقلاً ومطابقًا لقوانين ونظم الطبيعة والحياة، غير أن هذا الأمر الخارق لما تعود عليه البشر لا يقترن بدعوى النبوة ولا إيحاء لها، ولا سحر دجال، وإنما يخص الله أولياءه العارفين بها، وهو القادر الفعال لما يريد.

وقد يفهم من تعريفى للكرامة أننى من القائلين والمؤيدين لكرامات الأولياء، ولا أستطيع أن أقرر الآن ذلك قبل إلقاء الضوء على المشكلة، وإن كنت أقول: إن أعظم كرامة يهبها الله لمخلوق من مخلوقاته، هى كرامة الهداية والتوفيق فى حياته وأعماله قال القشيرى: «واعلم أن من أجل الكرامات التى تكون للأولياء دوام التوفيق للطاعة والعصمة عن المعاصى والمخالفات»[١١٧].

وقد قسم ابن عربى فى الفتوحات المكية الكرامات إلى قسمين:

١ - حسية.　　٢ - معنوية.

---

(١١٥) الصلة بين التصوف والتشيع للدكتور الشيبى ص ٣٦٠.

(١١٦) كرامات الأولياء للشيخ يوسف النبهانى ص ٣١٠.

(١١٧) بستان العارفين للإمام أبى زكريا النووى ص ٦٠.

أما الكرامات الحسية، فهى كرامات العامة مثل: المشى على الماء، وطى الأرض والاطلاع على الكوائن، والإخبار بالماضى والحاضر والمستقبل، أما الكرامات المعنوية، فهى كرامات الخاصة من عباد الله، وهى كرامة العمل بشريعة القرآن والتمسك بها.

ونفس هذا التقسيم للكرامة نجده عند ابن عطاء الله السكندرى فى لطائف المنن[١١٨].

الكرامة... بين مؤيديها ومنكريها:

يرى بعض الباحثين[١١٩]، أن هذه المشكلة من المشكلات الكبرى التى يختلف فيها علماء المسلمين اختلافًا بينا.. فبينما نجد المعتزلة يرفضون القول بحدوث مثل هذه الخوارق فى الطبيعة[١٢٠]، نجد الأشاعرة وجميع أهل السنة يسلمون بوقوعها[١٢١]، وكل فريق منهم يدعم رأيه بأدلة من الكتاب والسنة وبأدلة عقلية خالصة أيضا.

فالمعتزلة مثلا من أبرز المنكرين للكرامة... يقول المناوى فى الكواكب الدرية[١٢٢]: إن المعتزلة أنكروا الكرامة محتجين بأمور:

الأول : أنها توجب القياس المبنى بغيره لعدم تميزها عن المعجزة فلا تدل المعجزة على النبوة.

الثانى: أنها تفضى إلى السفسطة لاقتضائها انقلاب الجبل ذهبا أبريزًا والبحر دمًا عبيطا ونحو ذلك.

الثالث: أنه لو ظهر لولى كرامة لجاز الحكم له بمجرد دعواه أنه يملك حبة بر أو فلسًا واحدًا بغير بينة لظهور كرامته المؤذنة بعلو درجته عند الله، المانعة لكذبه سيما فى تافه، وهو باطل بإجماع المسلمين المؤيد بقول إمام المرسلين «البينة على من ادعى واليمين على من أنكره».

الرابع: أن ظهورها يوجب نقض العادة لتكثرها بتكثر الأولياء عن كونه خارقًا فيصير عادة.

الخامس: أنها تَسُدّ باب إثبات النبوة، لاحتمال كون المعجزة إكراما لا تصديقا فيطوى بساط النبوة رأسا.

السادس: أنها تخل بجلال كمال الأنبياء لمشاركة الأولياء لهم فى ذلك.

السابع: أنها لا تتميز عن السحر.

ويرد المناوى على كل حجة من هذه الحجج ردًّا غير قوى فى كثير من الأحيان فيقول:

(فأجيب عن الأول بأن المعجزة تقارن دعوى النبوة والكرامة لا تعارضها، بل يجب قرنها بالانقياد إلى النبى وتصديقه والسير على منهاجه فلا التباس.

---

(١١٨) لطائف المنن لابن عطاء الله السكندرى ص ٤٤.

(١١٩) ابن عطاء الله السكندرى للدكتور أبو الوفا التفتازانى ص ٧٢.

(١٢٠) مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير الكبير لفخر الدين الرازى: طبعة القاهرة ١٣٢٤هـ جـ ٥ ص ٤٦٣.

(١٢١) الفرق بين الفرق لعبد القادر البغدادى: طبعة القاهرة ص ٣٣٤.

(١٢٢) الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية لعبد الرؤوف المناوى ص ٨، ٩ صححه وعلق عليه محمود حسن ربيع.

وعن الثانى بأن ذلك لا يقتضى سفسطة، على أن التجويزات العقلية لا تقدح فى العلوم العادية.

وعن الثالث بأن الكرامة لا توجب للولى ولا تصديقه فى كل أمر، وقد سئل شيخ الطريق الجنيد.. أيزنى العارف؟ فقال: وكان أمر الله قدرا مقدورا، وهب أن الظن حاصل بصدقه فى دعواه لكن الشارع جعل لثبوت الدعوى منهجًا مخصوصًا ورابطًا معروفًا لا يسوغ العدول عنه، ألا ترى أن كثيرا من الظنون التى تكاد تقرب من اليقين، لا يجوز الحكم بها لخروجها عن الضوابط الشرعية.

وعن الرابع بأن كثرتها تكون استمرارًا لنقض العادة فلا نسلم كونها خروجا عنه، والكرامة وإن توالت على الولى حتى ألفها واعتادها، لا تخرجه عن طريق الرشاد ووجه السداد.

وعن الخامس بأن المقارنة للدعوى تفيد القطع بالصدق عادة.

وعن السادس بأن الكرامة تفيد جلالة قدر الأنبياء حيث بلغت أممهم ذلك ببركة الاقتداء بهم فلا إخلال.

وعن السابع بأنها تفارقه، وتتميز عنه بأنها لا يجدى فيها التعلم والتعليم، ولا تمكن المعارضة، ولا تجامع شره النفس، ولا تكون بمزاولة أعمال مخصوصة بخلافه، ثم يقول المناوى: «إن أهل القبلة اتفقوا على أن الكرامات لا تظهر على الفسقة، الفجرة، بل على الموفقين البررة، وبذلك لاح الطريق إلى أن معرفة الأنبياء لا تفسد، فإن الولى ينقاد للنبى الذى ظهرت المعجزة على يديه ويقول: معشر الناس هذا نبى الله فاتبعوه، ويكون أول منقاد»(١٢٣).

والعجيب أن المناوى ذكر فى كتابه الكواكب الدرية كرامات أسطورية وقعت لبعض الصالحين، جمعها من كتب المناقب والطبقات، من هذه الكرامات: (إحياء الموتى، وكلام الموتى وانقلاب الأعيان لهم، وانطواء الأرض لهم، وكلامهم للحيوان والنبات، والجماد، وإبراء العلل، والأمراض، وطاعة الحيوان لهم)(١٢٤).

وهكذا وقع المناوى فى المحظور، فلم يفرق بين المعجزة الخاصة بالأنبياء وبين كرامة الأولياء... هناك حدود تقف عندها الكرامة... إنه بذلك يضفى على الولى معجزات الأنبياء متخفيا بأن الولى يعمل بإذن الله، ويحيى الموتى بإذن الله.. وما كان معجزة لنبى لا يجوز أن تصبح كرامة لولى، وعلى هذا «فلا يجوز أن يقع على يد ولى قلب العصا حية، أو فلق البحر، أو إحياء الموتى، أو إنزال المائدة، أو نزول القرآن، أو انشقاق القمر، أو نبع الماء بين الأصابع، أو جميع المعجزات التى أجراها الله على أيدى الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم تحديا لأممهم وتصديقا لنبوتهم(١٢٥).

وعلى ما يقول الأستاذ مصطفى اللبان، يجب ألا تصادم الكرامة العقل، فليس معنى خرق العادة أن يكون الخارق مستحيلا... إذ أن المعجزات والكرامات تجرى على أسباب لو كشفها الله تعالى لعباده لرأوها سهلة مفهومة، ولعلموها أنها تجرى على سنن كونية خفية(١٢٦).

(١٢٣، ١٢٤) الكواكب الدرية للمناوى ص ٨ و٩ و١١ و١٢ على التوالى.

(١٢٥، ١٢٦) كتاب كرامات الأولياء رضى الله عنهم للأستاذ مصطفى أحمد الرفاعى اللبان ص ٥، ٦ على التوالى.

وكما صرحت من قبل إننى لا أنكر الكرامة فقد قال تعالى لمريم: ﴿وهزى إليك بجذع النخلة تساقطِ عليك رطبا جنيا﴾* ومريم لم تكن نبية.

وقوله تعالى: ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا، قال يا مريم أنَّى لك هذا قالت هو من عند الله﴾**، وحديث النبى ﷺ فى قصة جريج الراهب.، وجريج هذا لم يكن نبيا.، وحديث المصطفى ﷺ: «إن فى أمتى مكلمون ومحدثون».، كل ذلك وغيره يؤكد وجود الكرامة. فنحن لا ننكرها، وإنما تنكر الخزعبلات التى امتلأت بها كتب الأتباع وكتب المناقب.

عوامل انتشار الكرامات والتفسير النفسى لها:

يرى بعض الباحثين أنه قد تكون ظروف المجتمع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الهابطة، والتى عاشها المجتمع المصرى منذ القرن السابع الهجرى وما تلاه من قرون ضعف، وانقسام، وتفكك سياسى، واجتماعى ساعد على ذيوع كثير من الكرامات حول شيوخ الطرق الصوفية، (ولقد وجد حول كل ولى من أوليائه المتقين مجموعة من المنتفعين الذين يعيشون على حساب سمعة ذلك الولى أو الشيخ حيا وميتا، وهؤلاء يهمهم أن يظهروا شيخهم فى صورة القادر على كل شىء، فما من كربة إلا وهو قادر على تفريجها، وما من غمة إلا ويستطيع كشفها.، وهكذا يقصد أصحاب الحاجات شراء الشيخ، وأتباعه، بما يقدمونه من صدقات ونذور فى مقامه، فإذا رضى الشيخ عنهم، فإن طلبهم مجاب، وحاجتهم مقضية)[١٢٧].

ومن ذلك فإن من مصلحة خلفاء المولى وأنصاره وأتباعه تصوير وليهم بصورة القادر على صنع المعجزات، ومن هنا كان افتراؤهم عليه، ونشر حكايات كاذبة فى معظم الأحيان عن قدرات وليهم الخارقة، على شفاء المرضى، وقضاء الحاجات وقص كرامات لا أساس لها من الصحة.

وإذا نظرنا للكرامة من الناحية النفسية، نجد أن الكرامة بعد ذلك ليست عسيرة على التحليل السيكولوجى حتى يبدو اللامعقول مستساغًا مقبولاً. فحين تفشى الظلم، وانقطع أمل الناس فى الإصلاح من حكام الظاهر، منذ أواخر عصر المماليك[١٢٨]، ساد الاعتقاد بين مريدى التصوف (بحكومة الباطن) إذ يحكم الكون ويتحكم فى البلد أولياء من أقطاب وأبدال ونقباء، فعوض لهم الخيال آلام الواقع ومكنه فى نفوسهم، وغالبا ما يكون حكام الباطن من الفقراء أصحاب الحرف[١٢٩].

---

* سورة مريم آية ٢٥.

** سورة آل عمران آية ٣٧.

(١٢٧) كتاب السيد البدوى للأستاذ الدكتور سعيد عاشور ص ١٤٤، ١٤٥.

(١٢٨) وأيضاً فى أوائل عصر المماليك منذ القرن السابع الهجرى.. وإن كانت الكرامات حول الأولياء ظهرت بوضوح وتفشت بصورة رهيبة فى أواخر عصر المماليك.

(١٢٩) بحث للأستاذ أحمد صبحى بمجلة عالم الفكر الكويتية أعداد بولية، أغسطس، سبتمبر سنة ١٩٧٥ المجلد السادس العدد الثانى وعنوان البحث: التصوف: إيجابياته وسلبياته.

ويقول المرحوم الدكتور زكى مبارك: «والاعتقاد فى الكرامات عزاء كبير للفقراء فهم يخلقون لأنفسهم دنيا من المجد الموهوم يعوّضون بها ما ضاع عليهم من حظوظ الحياة، ومن المؤكد أن هذه الوساوس لا تسود إلا فى عصور الضعف السياسى والاقتصادى: حين تصبح الأمة وهى فارغة الأيدى من سلطان الجاه المال، ومن ذلك رأينا المسلمين فى عصور قوتهم لا يعرفون غير الواقع، مع أن الصلاح كان من أغلب الصفات عليهم[١٣٠]، ثم رأيناهم فى عصور الانحطاط يصدقون كل شىء ويلقون زمامهم إلى كل مخلوق، عساهم ينسون ما هم فيه من شظف العيش ونكد الشقاء»[١٣١].

ويبدو لنا أنه مما ساعد على انتشار الكرامات حول الأولياء أن عقلية الشعب المصرى تستريح، وتميل إلى الاعتقاد فى الأولياء وكراماتهم اعتقاداً متأصلاً راسخاً فى فكرهم منذ أزمان بعيدة، ويبدو أيضاً أن هناك عناصر قديمة الجذور متأصلة فى نفسية الشعب المصرى، تجعلها تؤمن بهذه الخرافات، حول قدرة الأولياء على التصرف فى الأكوان، وعمل المستحيل، كما يقال.

ويظهر أنه «كانت هناك عناصر من الديانات الفرعونية وغير الفرعونية تتصل بنفوس الشعب، من الخضوع للكهنة، والإذعان لسيطرتهم، ثم كان صنيع الفاطميين فى إثارة تلك المشاعر عند المصريين بما أذاعوا من دعايات وتعاليم وسموها بسمة الدين، وبما أبدوا من مهارة فى ربط عقلية الشعب بسكان الأضرحة والقبور، وتلمس الخير والبركة عند عتبات الشيوخ، وكان أن توالى على مصر كثير من المحن القاسية بوقوع المجاعات الساحقة، وفتك الأوبئة المروعة، فكان هذا كله مما هيأ عقلية الشعب للانحلال، وجعلها أطوع ما تكون لتقبل كل ما يقدم إليها، مما تتبين فيه روح الأمل والعزاء، وراحة الركون والاستسلام»[١٣٢].

لقد كانت نفسية الشعب المصرى مهيأةً تماماً لقبول الإشاعات وترويجها والتى امتلأت بها جنبات الوادى من أقصى الشمال من الإسكندرية وطنطا ودسوق، إلى أقصى الجنوب فى قنا والأقصر وأسوان، وساعد على ذلك ظروف المجتمع المتدهورة.

ولعل الذين كانوا يعملون على ترويج الأساطير حول شيوخ الطريق على دراية بنفسية الشعب وعقليته، ولهذا نجحوا فى تعميق وتأصيل وترويج هذه الإشاعات الأسطوريةحول أولياء الله الصالحين.

---

(١٣٠) وجهة النظر هذه تؤيد رأى أستاذنا الدكتور محمد كمال جعفر فى أن التصوف ازدهر وقوى فى ظل الحضارة الإسلامية فى أوج قوتها.

(١٣١) كتاب التصوف الإسلامى فى الأدب والأخلاق جـ ٢ للدكتور زكى مبارك ص ٢٨٤.

(١٣٢) كتاب السيد البدوى لمحمد فهمى عبد اللطيف ص ٨.